

الرجال في

تأليف : د. ه. لورانس . ترجمة : د. رمسيس عوض



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمية

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول:

يناير ١٩٤٩



رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة

عبد الحميد خروش

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود فتاح



ثمن النسخة

سوريا ١٦٠ ليرة - لبنان ١٠٠٠٠
ليرة - الاردن ٣٧٥٠ فلساً - الكويت
٢٠٠٠ فلس - السعودية ١٨ ريالاً -
البحرين ١٠٨٠٠ دينار - قطر ١٨
ريالاً - دبي / ابو ظبي ١٨ درهماً
- سلطنة عمان ١٠٨٠٠ ريال .

العدد ٥٨٣

يوليو ١٩٩٧ • ربيع أول ١٤١٨ هـ

No-583-JUL-1997

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه

الاسكندرية

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عدداً) ٥٥
جنيهاً داخل ج . م . ع تسدد مقدماً نقداً او
بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية
٣٥ دولاراً - امريكا واروبا واسيا وافريقيا
٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٦٠ دولار .
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لامر
مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال
عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول
: الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ٤٧٤١١٦٤
الادارة القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان
سابقاً) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتب : ص . ب .
٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا :
المصور - القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فلكس : FAX 3625469

« الرجل الذى مات »

تأليف د. هـ . لورانس

ترجمة وتقديم د. رمسيس عوض



دار الهلال

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية
THE MAN WHO DIED
by
D.H. LAWRENCE

الغلاف للفنانة :
سميحة حسنين

قبل أن تقرأ

مات د. هـ . لورانس فى عام (١٩٣٠) أى بعد عام واحد من نشر قصته «الرجل الذى مات» (١٩٢٩) التى كانت فى الأصل تحمل عنوان «الديك الهارب» . تدهورت صحته آنذاك على نحو مروع وكان الموت يحلق فوق جسده . وياقتراب شبح الموت منه زاده ذلك استمساكا بالحياة . يقول النقاد إن وصفه لقيامه المسيح من القبر فى قصته وهو فى حالة من الاعتلال والانهيال الشديد لم يكن سوى وصف على الصعيد الشخصى لحالته الصحية المتهاكمة . يقول لورانس عند شعوره بدنو الموت منه :

«إننى بكل بساطة أعانى من تغير فى الحياة ونوع غريب من الارتداد كما لو كانت روحى ترتد إلى الخلف نائية عن الاتصال بكل شىء . ذلك كان بمثابة اليوم الذى وضعوا فيه يسوع المسيح فى القبر . وفى واقع الأمر بدأت هذه الأيام الثلاثة التى قضاها يسوع فى القبر تكتسب معنى فظيعا مروعا بالنسبة لى وتصبح حقيقة ماثلة أمامى» .

ويحدثنا لورانس عن قصته قائلا :

«ألفت قصة عن القيامة حيث تصورت المسيح ينهض من قبره شاعرا بالغثيان الشديد من كل شيء ولم يعد باستطاعته أن يتحمل جموع البشر التي تبعته فيما مضى ومع إبلاله من مرضه أخذ يدرك كيف أن عالم الظواهر عالم يبعث على الاندهاش وكيف أنه أكثر مدعاة للدهشة من الخلاص والجنة . وشكر المسيح حسن حظه لأنه لم يعد بحاجة إلى أداء رسالته . وهذه القصة تسمى (الديك الهارب) .»

لم يكن لورانس أول من استحدث عنوان «الرجل الذى مات» فقد سبقه إلى ذلك ادوين ارلنجتون روبنسون الذى أصدر عام ١٩٢٤ كتابا بعنوان «الرجل الذى مات مرتين» . سعى لورانس فى قصته إلى الهجوم على القديس بولس بسبب اعتقاده بانفصال الروح عن الجسد واعتقاده أيضا أن الجسد مصدر كل الشرور والفساد ، فقد جاء فى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية إصحاح ٧ آية ١٤ : « فإننا نعلم أن الناموس روحى وأما أنا فجسدى مبيع تحت الخطيئة » والذى لاشك فيه أن لورانس تأثر فى هجومه على المسيحية بوجه عام وعلى القديس بولس بوجه خاص بما نشره الفيلسوف الألمانى المعروف نيتشه بعنوان «عدو المسيح» المنشور عام ١٨٨٨ . فقد أدان نيتشه فى كتابه تحول الله إلى قوة معادية للحياة البشرية .

استمد لورانس بذرة قصته من قصة قرأها نحو عام (١٩١٦) من تأليف جابرييل دافوتتسيو بعنوان «عذراء الصخرة» (١٨٩٥) فقد كتب دافوتتسيو مدافعا عن النظرة الحسية إلى الحياة بصدد المسيح: «من الجائز لو أن اليهود لم يقتلوه في مقتبل العمر لأزاح عن كاهله وطأة الحزن واستساغ مذاق ثمار الجليل اليانعة وبين لتابعيه أن هناك سعادة أخرى» .

قرأ لورانس هجوم نيتشه على المسيحية في مارس عام ١٩١١ ، ونحن نجد أصداء لتأثره بأفكار هذا الفيلسوف في روايته «قوس قزح» ، وفيها نطالع أن بطلتها أورسولا : «كانت تشعر بوجود شيء غير نظيف ومنحط في الجانب المتواضع من المسيحية ، كما أن الرعب امتلكها عندما حثها البعض على أكل جسد يسوع الميت » وفي مقال سطره لورانس عن الشاعر الأمريكي والت ويتمان في نهاية الحرب الأولى نراه يعالج نفس الموضوع الذي عالجه فيما بعد في قصته : «الرجل الذي مات» . يقول لورانس في مقاله عن ويتمان : «إن المسيحيين في مرحلة تلو الأخرى قاموا فعلا بتدمير الجانب الحسى في الإنسان» .

ويناقش لورانس في إحدى مقالاته اللاحقة بعنوان «الله الذي قام من الأموات» العلاقة بين بعث الجسد وتجدد الطبيعة في موسم الربيع ، قائلا في هذا الشأن : «إن مذهب الكنيسة

يشر ببعث الجسد وإذا لم يكن هذا معناه بعث الإنسان كاملاً فإنه يصبح بلا معنى . والويل لى إذا كان يمكن للإنسان أن يصبح كاملاً بدون امرأة . إنه قام من الأموات ليتحد مع الحياة ويحيى تلك الحياة العظيمة المشتملة على الروح والجسد معا .. وإذا كان يسوع المسيح قد قام فى الجسد والروح كإنسان مكتمل فإنه لم يفعل هذا إلا ليتخذ لنفسه امرأة يعيش معها ويعرف رقة وازدهار الاتحاد بها .

ان القصة التى ألفها لورانس تبدأ بيقظة حواس الرجل الذى مات وتحوله من عالم مسيحى إلى عالم وثنى تتجدد فيه الطبيعة فى فصل الربيع . ان لورانس يعيب على المسيحية إيمانها بحب العالم وإنكار الذات من أجله فى حين أن الهدف الحقيقى من الحياة ليس الايثار أو انكار الذات ولكن تحقيق هذه الذات فضلاً عن أن المسيحية تحض على زراية الجسد فى حين أنه يعلى من شأن الجسد وينادى بضرورة انصهار الجسد والروح فى بوتقة واحدة . والقارىء لروايته الشهيرة «أبناء وعشاق» يرى أن بطلها بول (الذى يمثل المؤلف) يتمرد على تزمته أمه وتشدها البيوريتانى فى فهم الدين المسيحى . ومن ثم تمرده على الدين فى يفاعته ، وهو لم ينبذ الدين بسبب أمه فحسب بل بسبب حبيبته ميريام التى كانت تحبه حباً

مسيحيا افلاطونيا طاهرا ونقيا وتستبشع ما قد يظهر عليه من
عواطف جنسية . إن المسيحية التي كانت تصلح في الماضي
لم تعد - في نظر لورانس - تصلح للحاضر . يقول مؤلفنا في
هذا الشأن :

« إنني أعرف عظمة المسيحية ولكنها عظمة تنتمي إلى
الماضي ، وإنني أعرف أنه لولا المسيحيون الأوائل لما كنا قد
خرجنا أبدا من الفوضى وويلات العصور الوسطى التي تبعث
على اليأس والقنوط ، ولو أنني كنت أعيش عام ٤٠٠ ميلادية
لكنت مسيحيا حقا يتأجج بالعاطفة المسيحية ويبتهل إلى الله ،
ولكني أعيش الآن عام ١٩٢٤ بعد انتهاء شأن المسيحية ، إن
المسيحية لم تعد أمرا مثيرا ويجب علينا الشروع في مغامرة
جديدة تقودنا إلى الله » .

وأخيرا لا مناص من القول إن قصة «الرجل الذي مات»
واضحة التجديف فهي تتصور أنه بعد قيامته يخوض تجربة
الجنس مع كاهنة ايزيس التي يتركها ويهرب من الحراس
الرومان بعد أن وضع بذرته فيها ، حتى مريم المجدلية
أرادت غوايته وزوجة الفلاح أرادت أن تراوده عن نفسه .
كل هذه الأمور جلية واضحة رغم شدة إغراق القصة في
استخدام الرموز والصور الشعرية وأيضا رغم استخدام
لمفردات الدين المسيحي مثل صياح الديك الذي أيقظه من

رقاده والذي يعيد إلى الأذهان صياح الديك عند خيانة بطرس
للسيد المسيح .

الرأى عندى أن القصة هى هلوسة رجل عبقرى أضناه
المرض وأهلك السقم جسده وأدناه من الموت فأصبح مستمسكا
فى يأس عظيم بتلابيب الحياة التى أوشكت على الانطفاء
وعلى أية حال فإن نشر مثل هذا العمل بلغته الأصيلة لدليل
قوى على مدى ديناميكية الحضارة المسيحية وسماحتها ورحابة
صدرها

من الخطأ أن يعتقد القارئ أننا نهدف من وراء نشر هذه
القصة إلى الزرابة بالدين المسيحى ولشخصية المسيح . فليس
هناك ما هو أغلى منهما لدى مترجم هذه القصة . والذي
أغرانى بترجمتها والسعى إلى نشرها ما تتسم به من غرابة
من ناحية ورغبتى فى إلقاء الضوء على نمط من الفكر الغربى
لم نألفه فى الشرق . وأيضا يخطئ القارئ إذا ظن أننا
نشارك المؤلف رأيه فى قليل أو كثير .

نحن جزء لا يتجزأ من الكوكب الذى نعيش عليه ولا بد لنا
من الإطلاع على تجاربه مهما بدت غرابتها . لا بد لنا أن
نتعرف على آراء الشعوب الأخرى مهما اختلفنا معها ومهما
كانت قميئة أو كريهة على أنفسنا . فالعالم كما يقولون قد
أصبح قرية صغيرة . وما يحدث فى أى ركن قصى منه أصبح

عن طريق وسائل الاتصال الحديثة وعلى رأسها الانترنت شديد
الدنو منا . وتجاهل ما يحدث فى هذا العالم يضعفنا ولا يقويننا .
ثم إن الأمانة تقتضى منا أن نتعرض لتجارب الآخرين
بموضوعية وحيدة تامة دون أن يكون هناك ما يضطرنا إلى
الأخذ بها . إن الأديان فى الشرق راسخة رسوخ الجبال العتيدة
الشاهقة وسوف تظل كذلك إلى يوم الدين . ومهما قيل بشأنها
فإنها لن تتأثر مطلقا ولن تتزعزع قيد أنملة .

وعلى كل حال إذا كان للقيم المادية والديمقراطية فى
الغرب وجهها القمىء فإن للحرية وجهها المشرق رغم أنها قد
تؤدى أحيانا إلى الشطط والتطاول على المقدسات . إن ما
يتمتع به الغرب من حرية التفكير والتعبير دلالة قوة أكثر منه
دلالة ضعف . فالغرب لم يعد يلتجئ إلى قمع الأفكار الهدامة
أو المخالفة بل يكتفى بالرد عليها وتفنيدها وأعتقد أننا سوف
نكسب أكثر مما نخسر إذا انتهجنا هذا النهج .

المترجم

الرجل الذى مات

كان هناك فلاح بالقرب من أورشليم يملك ديكاً فتياً يفيض بالحيوية ، ورغم أن هذا الديك بدا زرق المنظر وضئيل الحجم فإن جسمه بتقدم الربيع غطاه الريش الزاهى ، كما أنه بدا بديعاً بعنقه المقوس البرتقالى اللون حين ازدهرت الأوراق على أطراف أشجار التين

وكان هذا الفلاح فقيراً يعيش فى كوخ من الطوب المصنوع من الطمي وليس فيه سوى فناء داخلى هو كل ما يملك من أرض ويحتوى على شجرة تين قوية ، وكان يعمل عملاً شاقاً فى الكرمة وحقول الزيتون والقمح التى يملكها سيده . ثم يعود بعد عمله الشاق لينام فى بيته المجاور للطريق . وأيضاً يحتوى فناء البيت المقفول على ثلاث دجاجات زرق المنظر تضع بيضاً صغير الحجم وقد سقط ريشها القليل الذى يغطى جسدها ، فضلاً عن أنها خلفت وراءها كمية كبيرة من الوساخات لا تتناسب مع ضالة حجمها .

وكان هناك كذلك فى أحد الأركان تحت السقف المغطى بالقش حمار غبى اصطحبه الفلاح إلى العمل ، ولكن هذا الحمار كان يبقى أحياناً فى البيت . وكان هذا الفلاح متزوجاً من امرأة لاتزال تحتفظ بشبابها ذات حاجبين أسودين ولا تميل إلى إرهاق نفسها فى الشغل ، ورمت الزوجة للدواجن قليلاً من الحبوب أو بقايا أكلة

العصيدة ، كما كانت تقطع العلف الأخضر بالمنجل لتقدمه إلى الأتان.

وكبر الديك الشاب حتى بدا على قدر من البهاء ، وشاعت الأقدار بالمصادفة أن يصبح هذا الديك غندورا فى ذلك الفناء القذر الصغير يفعل ما يحلو له بثلاث دجاجات مبقعة تعيش معه فى نفس المكان . وتعلم هذا الديك أن يلوى رقبتة ويرفعها إلى أعلى مطلقا صرخاته الحادة استجابة لصياح الديوك الأخرى التى يصل صوتها إليه من وراء الجدران ومن عالم لايعرف عنه شيئا ، غير أن صياحه كان يتسم بحدة غير عادية ، وكانت صيحات الديوك الأخرى تثير ثأثرته على نحو غير متوقع .

قال الفلاح ناهضا وهو يشد رداء النهار فوق رأسه : « يا لجمال غنائ» فردت عليه زوجته : ان هذا الديك قادر على معاشرة عشرين دجاجة » .

وخرج الفلاح ليلقى بفخر نظرة على ديكه الشاب الذى بدا مزدانا بعد أن تعرف معرفة أخيرة على ثلاث دجاجات رثة المظهر، ولكن الديك أمال رأسه ليستمع إلى التحدى الذى جاءه من بعيد من الديوك غير المرئية فى العالم المجهول . ووصلت إليه أصوات هذه الديوك وهى تصيح بغموض من مكان ناء فرد عليها الديك بصوت تحد مجلجل لا يعرف الخوف أو الضعف .

قالت زوجة الفلاح : «إنه بكل تأكيد سيطير هاربا منا فى يوم من الأيام» ولهذا حرص الفلاح وزوجته على إغرائه بالقمح وأمسكا به رغم أنه قاومهما بقوة برجليه واصطفاق أجنحته ووضعاً قطعة من الدوبار حول عظمة ساقه وربطاه من طرف إلى صخرة وربطاه من الطرف الآخر إلى العمود الذى يحمل سقف زريبة الحمار المصنوع من القش .

ومشى الديك الشاب بعد تحرره مشية المختال فى سخط حتى ابتعد عن البشر ، وأتى إلى نهاية الدوبارة ثم هز رجله المربوطة بعنف فارتطمت وسقط الديك للحظة على الأرض وهو يتصارع فى حدة على أرضية البيت الترايبية غير النظيفة الأمر الذى أفزع الدجاجات الرثة ، ولكن الديك بعد أن ترنح ترنحا واهنا استطاع أن يستعيد قدرته على المشى على رجليه ثم وقف ليفكر ، وندت عن الفلاح وزوجته ضحكات من القلب ترامت إلى أسماع الديك الشاب الذى أدرك متشائما - اعتمادا على تلك المعرفة المنذرة بالشر - أن رجله مقيدة .

لم يعد الديك يمشى مختالا مرفرفا جناحيه وناقشا ريشه ، بل مشى بجهامة بقدر ما سمحت له قيود الدوبارة ، وكان لايزال يزدرد أفضل الحبوب فى طعامه كما كان فى بعض الأحيان يدخر بعض أفضل هذه الحبات لتأكلها دجاجته التى اختارها لتكون

محظيته فى تلك اللحظة ، ورغم هذا فإنه سار فى زهو مفترس
ترتجف أوصاله وتهتز نحو محظياته من الدجاج الواقفة فى طريقه
دون مبالاة أو اكتراث ، مظهرًا قدرته الخافية على إغراء الاناث ثم
صاح متحديا صوب صيحات الديكة الأخرى التى انهمرت عليه فى
الفجر من مكان ناء وبعيد .

والآن اتسمت طريقته فى ازدراد الطعام بشراهة متجهمه، كما
أن طريقته فى معاشرة الدجاجات الرثة اتسمت بالانتصار
المنتكس ، وفضلا عن ذلك فقد صوته جلجلة رنينه الذهبى الكامل .
ولا غرو فهو مربوط من رجله وهو يعلم ذلك ، ثم إن الدوبارة قيدت
جسده وروحه ونفسه .

ورغم ذلك استمر بجهامة فى أعماقه ينبض بالحياة الدافقة .
وشعر بضرورة تمزيق الرباط الذى يقيد حركته ، وفى صبيحة أحد
الأيام وقبيل انبلاج نور الفجر صحا الديك من سباته وقد غمرته
موجة من القوة المفاجئة ، وقفز إلى الأمام على جناحيه فانقطعت
الدوبارة ، وندت عنه نعقة وحشية غريبة . وبقفزة واحدة اعتلى
أعلى الحائط ، وهناك صاح صيحة حادة عالية أيقظت الفلاح من
نومه .

وفى نفس الوقت ، بل وفى نفس الساعة السابقة على انبلاج
الفجر من صبيحة نفس اليوم استيقظ رجل من سبات عميق كان

قد استغرق فيه ، ولما استيقظ شعر بالخدر والبرودة يسريان في جسده ، وهو راقد في مغارة منحوتة في الصخر ، وكان جسده طيلة نومه الطويل يعاني من الألم الذى لم يبارحه حتى بعد استيقاظه ، ورغم أنه لم يفتح عينيه ، فإنه أدرك أنه يقظان وأنه يشعر بالخدر والبرودة يسريان فيه كما شعر بأن أعضائه متصلبة وتفيض بالألم ، فضلا عن أنه مربوط إذ كان وجهه ملفوفا في أكفان باردة ورجلاه مربوطتين ، ولكن يديه فقط كانتا مقيدتين .

كان باستطاعته أن يتحرك لو أراد ذلك ، ولكن لم يكن راغبا في الحركة فمن ذا الذى يريد أن يعود من عالم الأموات ؟ واستولى عليه شعور قوى بالغثيان عندما أحس أن هناك ما يشير إلى أنه أصبح قادرا على الحركة ، لقد شعر لتوه بالسخط لأنه أبدى حركة غريبة وغير محسوبة تدل على استرجاعه الوعي وهو ما كان لايرغب في حدوثه ، فقد كان يؤثر البقاء في ذلك الخارج الذى تصير فيه الذاكرة نفسها مثل قطعة الحجر الميتة .

لكنه أحس الآن بشئ يعود إليه ، مثل رجوع خطاب إلى راسله، وأثناء عودة هذا الشئ أحس بالغثيان يستولى عليه، ومع ذلك تحركت يداه فجأة ، وارتفعت يداه باردتين وثقيلتين وتنتشر فيهما القروح . ولكنهما رغم ذلك تحركتا لتزيحا القماش الذى يغطى

وجهه والأربطة المحيطة بكتفيه ، وبعدئذ تهاوت يداه للمرة الثانية باردتين خدرتين وهما تؤلمانه لأنه بذل مثل هذا الجهد فى تحريكهما ، وأصبحت يداه على غير استعداد للحركة بالمرة .

وبعد أن أزاح الرجل غطاء وجهه وحرر كتفيه من القيود ، أصابته انتكاسة فرقد ميتا مستندا إلى فناء الموت البارد ، وهو أقصى مايمكن للمرء أن يرغب فيه ، وكاد يبلغ تماما حالة الفناء الناجم عن الوجود خارج هذا العالم .

ورغم أنه كاد يفقد وعيه ، فإنه شعر فجأة بالألم فى معصميه فارتفعت يداه ، وبدأتا فى إزاحة اللفائف المحيطة بركبتيه، كما شرعت قدماه فى الحركة ، ولكن صدره ظل راقدا تسرى فيه برودة الموت .

وأخيرا فتح عينيه على الظلمة . نفس الظلمة ! ولكن ربما كان هناك بصيص خافت من ذلك الضوء الذى يخترق الظلمة الدامسة باعثا على الازعاج الشديد ، ولم يستطع أن يرفع رأسه وأغمض عينيه مرة أخرى شاعرا أن أمره قد انتهى .

وفجأة اعتدل فى رقدته ، فرأى العالم يترنح من حوله ، وتساقطت الضمادات وبدأ يحس بجدران المغارة تضيق عليه ، مما أعطاه احساسا جديدا مؤلما بأنه مسجون فى زنزانة ، وكانت

هناك شقوق تسمح بمرور بصيص من الضوء فيها ، وأمدّه الإحساس باقشعرار بدنه بقوة دافعة جديدة مكنته من أن يميل بجسده إلى الامام فى جوف المغارة الضيق ، وأسند يديه الواهنتين على الصخرة بالقرب من الشقوق التى نفذ الضوء من خلالها .

وجاعته القوة من مكان ما ... من اقشعرار بدنه نفورا واشمئزارا . وحدث صوت ارتطام واخترقت المكان موجة من الضياء. وطأطأ رأسه وجرمز فى حجرة يواجه اندفاع الضوء الوحشى ، لم يكن الفجر بعد قد انبج ، وداعبته غرابة وحدة أنفاس الفجر النافذ مما يدل على يقظته الكاملة من سباته .

وشيثا فشيئا زحف الرجل من زنزانة المغارة بحرص من كان مصابا بجراح ثخينة ، وسقطت عنه الضمادات والكتان والعطور ، وجرمز على الأرض مستندا إلى حائط المغارة الصخرى ليستعيد نسيانه لما حوله ، ولكنه رأى قدميه اللتين تؤلماناه تلمسان الأرض مرة أخرى فى ألم ممض لا يطاق ، تلك الأرض التى لم تكونا لتلمساها قط ، ورأى ساقبيه النحيلتين اللتين ماتتا ، وملاه ألم لاسبيل لاستكناه حقيقته .. ألم يشبه الجسد عندما ينفض عن

نفسه الأوهام ويفيق إلى الحقيقة إلى الحد الذى جعله يقف على قدميه ويضع يده الممزقة على حافة القبر .

يالها من عودة إلى الحياة من عالم الأموات ! ورأى لفائف الكتان تسقط من حول قدميه الميتين فانحنى ليلتقطها ويطبقها ويضعها فى التجويف الصخرى الذى خرج منه ، ويعدنذ أخذ ملاءة الكتان المعطرة ولفها حول جسده كعباءة يتأزر بها ، ثم التفت إلى الفجر الخافت البارد .

كان وحيدا وأصبح بموته يتجاوز حتى الوحدة .

وكان لايزال ممثلاً بالشعور بالغثيان الذى يسببه نفذه الذى لا يوصف للأوهام ، وخطا الرجل بأقدام انكمشت فجأة من شدة الألم على المنحدر الصخرى ، ومر على جنود الحراسة النائمين والراقدين تحت نبات الفار الوحشى فى عبااتهم المصنوعة من الصوف ، وبينما هو صامت وواقف على قدمين مثخنتين بالجراح يلفه كفن من الكتان الأبيض ألقى للحظة نظرة على أجساد الجنود التى تشبه الكومة الخامدة ، وأثار منظرهم فى نفسه المقت الشديد ولكن بالرغم من أنهم بدوا كمجموعة من الأطراف البطيئة القذرة فإنه شعر بنوع من العطف عليهم ، وتقدم فى اتجاه الطريق خشية أن يوقظهم من نومهم .

لم يكن لديه أى مكان يذهب إليه ، فانصرف من المدينة الواقعة على التلال وتبع ببطء الطريق مبتعدا عن المدينة ومر أثناء سيره بشجر الزيتون التى كانت زهور الأنوميا تنحنى أسفلها فى برودة الفجر . فى حين تكاثرت الحشائش الغنية بالخضرة . وبدا العالم نفس العالم .. العالم الطبيعى الزاخر بالخضرة وارتفع صوت العندليب الحلو الجذاب يشدو بنغمة مغرية حزينة مغنيا عند الشجيرات الواقعة بجوار ساقية المياه الموجودة فى هذا العالم الطبيعى حيث الصباح والمساء الذى لا يموت والذى كان شاهدا على وفاته .

ومضى فى سبيله على قدمين مليئتين بالجروح والندوب ، لا هو من هذا العالم ولا هو من العالم الآخر ، لا هو هنا ولا هناك ولا هو بالمبصر أو بغير المبصر ، معنى الرجل فى عتامة إلى الأمام مبتعدا عن المدينة وضواحيها متعجبا لما يدعوهُ إلى السفر والتجوال ، ومع ذلك فقد تحرك فيه إحساس عميق غامض بالغثيان مثلما دفعه إحساس بالتصميم ، لم يكن يدري أنه يخامره .

وتقدم فى طريقه وهو نصف واع بما يفعل تحت الحائط الصخرى الجاف المحيط ببستان الزيتون ، وأيقظه صياح الديك الحاد العنيف والقريب منه . وكان صياح الديك سببا فى شعوره

بالنفور والاشمئزاز كما لو كان مسا كهربائيا قد أصابه ، وزأى
ديكا يجمع بين اللونين الأسود والبرتقالي قابغا على فرع
شجرة تكسو الطريق كما رأى فلاحا يلبس جلبابا واسعا من
الصوف يجرى وسط شجر الزيتون الموجود فى اعلى البستان،
وجاء الديك ذو اللونين الأسود والبرتقالي يعلوه عرقه الأحمر
وهو يقفز فى وسط الخضرة ، وقد انساب ريشه الطويل وضاء
زاهيا .

صاح الفلاح قائلا : «أوقفه يا سيد ، أوقف ديكى الذى هرب
منى» وفتح الرجل الموجهة اليه هذه الكلمات - وقد ارتسمت على
وجهه خلجة مفاجئة من الابتسام - طرفى كفنه الأبيض الواسع
ليعوق حركة الطائر الهارب ، وتراجع الديك وندت عنه نعقة
ورفرفة ، وقفز الفلاح إلى الأمام للإمساك به فحدثت رفرقة فظيعة
فى جناحى الطائر الخفيضين ونفض ريشه .

وتمكن الفلاح من استعادة الديك والامساك به فى أمان تحت
إبطه ورفع رقبته بجنون إلى الامام وقد جحظت عيناه المستديرتان
من حدقتيه البيضاوين .

قال الفلاح «إنه ديكى الهارب» مربتا بيده اليسرى على الطائر
لتهدئته ، وتفرس وحيات العرق تنضح منه فى وجه الرجل الملفوف
بالكتان الأبيض .

وتغيرت ملامح الفلاح فوقف جامدا بلا حراك وهو يتطلع إلى وجه الرجل الذى مات وقد كسته صفرة الموت ، ذلك الوجه الساكن للغاية الممتقع امتقاع الموت بلحيته السوداء النامية كما لو كانت تنمو رغم الموت . وتلك العيون السوداء الحزينة المفتوحة باتساع التى ماتت ، وتلك الندوب المغسولة على جبينه الممتقع . وفغر الفلاح الذى تجرى الدماء فى عروقه بطيئة فاهه بسبب عدم قدرته على استيعاب الموقف كما لو كان طفلا .

قال الرجل المئزر بالكفن : « لاتخف فأنا لست ميتا ، لقد تعجلوا فى إنزالى ودفنى ، ولهذا عدت من الأموات ، ومع ذلك فإنهم سيفعلون بى نفس ما فعلوا لو أنهم اكتشفوا أننى لا أزال حيا » .

تحدث الرجل بصوت اشمئزازه القديم من الجنس البشرى ، وبالذات عندما يكون الجنس البشرى فى السلطة ! شئ واحد فقط يستطيع الجنس البشرى أن يفعله ! ونظر بعيون سوداء غير مكترثة إلى عينيّ الفلاح المتحركتين السريعتين ، وارتجفت أوصال الفلاح ، وأصبح لا حول له ولا قوة أمام نظرات الرجل المفعمة باللامبالاة المختلفة وبالتصميم البارد الغريب ، ولم يكن باستطاعة الفلاح أن يقول شيئا غير قوله للشئ الوحيد الذى يخشى أن يتفوه به :

« هل ستختبئ فى بيتى يا سيد ؟ » .

«سوف أرتاح هناك ، ولكنك إذا أخبرت أى إنسان ، فأنت تعرف ما سيحدث ، سوف يقودونك إلى القاضى » .

وتلفت الفلاح من حوله فى خوف متعجبا بوجوم عما حدا به أن يجلب هذه المصيبة على نفسه ، وفى ألم ضعد الرجل الذى تغطى الندوب قدميه حتى وصل إلى مكان بستان الزيتون ، وتبع الفلاح المسرع الواجم عبر أعواد القمح الخضراء الموجودة وسط أشجار الزيتون ، وشعر بلمس القمح النضير تحت قدميه اللتين ماتتا ، وكأنه قطعة من الحرير ، وأحس بخشونة حبات القمح المنفصلة ..

وعند حافة الصخور وقع بصره على براعم زهور الانيمونيا القرمزية ذات اللمس الحريرى والشعر الفضى وهى تنحنى إلى أسفل ، وأيضا كانت هذه الزهور تنتمى إلى عالم آخر. أما هو فقد كان فى عالمه وحيدا وحدة مطلقة . وكانت هذه الأشياء المحيطة به تنتمى إلى عالم لم يمت أبدا ، ولكن هو نفسه قد مات أو قتلوه حتى يخرج من هذا العالم ، وكل ما تبقى لديه الآن هو ذلك الشعور العظيم الأجوف بالغثيان الناجم عن نفث الأوهام الكامل والافاقة إلى الحقيقة .

وجاء الرجلان إلى كوخ من الطين وبقلب حزين وكسير انتظر
الفلاح حتى يمر الرجل الآخر .

قال الفلاح :

ادخل ... ادخل فلم يرنا أحد !..

ودخل الرجل المكتسى بالكتان الأبيض حجرة مبنية من الطين
حاملا معه أريج العطور الغريبة ، وأغلق الفلاح الباب ودلف عبر
مدخل داخلى إلى الفناء حيث وقفت أتان داخل الحوائط العالية
فى مأمن من السرقة وهناك قام الفلاح - وهو أشد ما يكون
انزعاجا - بربط الديك . وجلس الرجل الممتقع الوجه على
حصيرة بالقرب من المدفأة ، فقد كان منهوك القوى وبالكاد
يحس بأنه واع لما يحيط به ، ورغم ذلك فقد سمع فى الخارج
الفلاح وهو يهمس فى أذن زوجته التى كانت فوق السقف تراقب
ما يحدث ، وفى الحال دخل الرجلان ، وأخفت المرأة وجهها
وصبت الماء ووضعت الخبز والتين المجفف على طبق مصنوع من
الخشب .

قال الفلاح :

«لتأكل يا سيد ! لتأكل ! إن أحدا لم يرنا»

ولكن الغريب لم تكن لديه الرغبة فى الطعام ، ومع ذلك فإنه بلل
قطعة صغيرة من الخبز فى الماء وأكلها لأن الحياة يجب أن

تستمر، ولكن الرغبة ماتت فيه ، حتى الرغبة فى الطعام والشراب ،
لقد عاد من الأموات دون أية رغبة ، بل حتى دون الرغبة فى أن
يعيش ، وكان قلبه فارغا إلا من الشعور بنفض الأوهام الكاسح
الراقد فيه مثل الغثيان الذى عاشه فيما مضى .

ربما استقر فى أعماقه أكثر من نفخ الأحلام ذلك التصميم
الزاهد فى الرغبة الذى غار فى أعماقه أكثر من الوعى ذاته .

ووقف الفلاح وزوجته بجوار الباب يراقبان فرأيا ، والرعب يملأ
جوانحهما ، الجروح البيضاء المتقيحة على يديه النحيلتين الذابلتين
وكذلك على قدمي الرجل الغريب الناحلتين والندوب الصغيرة فى
جبينه الذى لا يزال ميتا وشما بفزع رائحة العطور الغنية التى
فاحت منه ومن جسده . ونظرا إلى الكتان الناصع البياض البديع
الثمين ، ربما كان فى حقيقة الأمر ملكا وافته منيته جاء من منطقة
الرعب والفزع ، وكان لا يزال باردا ونائيا فى منطقة الموت يفوح
أريج العطور فى جسده الشفاف كما لو كان يفوح من زهرة
غريبة.

وبعد أن ازدرد بصعوبة شيئا من الخبز المبلل ، رفع عينيه فى
اتجاه الرجل وزوجته وراهما كما كانا : محدودين وضئيلين فى
حياتهما وعارين عن روعة الحركة المعبرة عما يخالجهما وأيضا
عارين عن الشهجاعة ، ولكنهما كانا كما كانا مجرد أجزاء بطيئة لا

محيط من العالم الطبيعي ، لم تكن فيهما نبالة ، ولكن
الخوف بعث فيهما القدرة على التعاطف مع الآخرين .

ومرة أخرى شعر الغريب بالتعاطف معهما لأنه عرف أنهما
سيستجيبان ويخرجان أفضل ما فيهما أمام الرقة والحنو
الذين سوف يبادلهما إياهما برقة وحنو يختفيان تحت ستار من
الخشونة .

قال لهما برقة : «لاتخافا . دعاني أمكث معكما وقتا قليلا .
إنني لن أمكث طويلا ، وبعدئذ سأرحل عنكما إلى الأبد . ولكن لا
تخافا فلن ينالكما ضرر بسببي .

وصدقاه على الفور غير أن الخوف لم يبرح قلوبيهما وقالوا :
«أمكث يا سيد المدة التي تريدها . ولتأخذ راحتك . ولتأخذ
راحتك بسكينة وهدوء» .

ولكن الخوف ملأ قلوبيهما .

وتركهما الرجل الذي مات لخوفهما ، وانصرف الفلاح بصحبة
أتانته ، وبزغت الشمس ساطعة ، وفي ظلمة البيت والباب مغلق بدا
الرجل كما لو كان لا يزال في القبر ، ولهذا قال للمرأة «سوف أرقد
في الفناء» .

وهبت المرأة لتكنس الفناء من أجله . ووضعت له حصيرة فرقد أسفل الجدار وقد سقطت عليه شمس الصباح ، وهناك شاهد بشائر أوراق الشجر الخضراء تنطلق من نهايات شجرة التوت المحاطة عبر المكان الأجرد العارى نحو سماء الربيع فوقه ، ولكن الرجل الذى كان قد مات كان عاجزا عن النظر ، فكل ما استطاع فعله هو أن يرقد هامدا تماما فى الشمس التى لم تكن السخونة قد دبت فيها بعد . ولم يحس بالرغبة تعتمل بين جوارحه ولاحتى الرغبة فى أن يبسدى حراكا ، ولكنه رقد وقد امتدت رجلاه النحيلتان فى الشمس وانسدل شعره الأسود المعطر على تجويف رقبته ، وكانت ذراعاه الناحلتان الخاليتان من اللون فى حالة من الخمول الكامل ، وبينما هو راقد كانت الفراخ تقوق وتنش الأرض . أما الديك الهارب الذى تم الإمساك به وربطه من رجله مرة أخرى فقد قبع فى ركن وقد اعتراه الخوف والفرق .

وانتاب الخوف المرأة الفلاحة التى جاءت متلصصة . ولما رأت أنه لا يتحرك أبدا ، خافت أن يكون الرجل قد مات فى فناء بيتها ، ولكن عندما اشتدت الشمس فتح الرجل عينيه ونظر إليها فانتابها الخوف من هذا الرجل الحى الذى لم ينبس ببنت شفة .

فتح عينيه ورأى العالم مرة أخرى فى لمعانه الشبيه بلمعان
الزجاج ، وأحس بالحياة التى لم يعد له فيها أى نصيب ، ولمعت
من حوله الأشياء: السماء الزرقاء وشجرة التين الجرداء تكسوها
نتف من الأوراق الخضراء . كان كل شئ يلمع كالزجاج دون أن
يشارك فيه لأن الرغبة التى تعتمل فيه قد ماتت .

ومع ذلك كان الرجل هناك لم تنطفىء فيه جذوة الحياة تماما ،
وأمضى يومه فى نوع من الغيبوبة ، وعند هبوط المساء دخل
المنزل، كان الفلاح قد رجع إلى بيته يعتريه الخوف ، وظل
صامتا لا ينبس بكلمة واحدة ، وأيضا أكل الرجل الغريب من عليق
القول ، ولكن قليلا . وبعدئذ غسل يديه والتفت إلى الحائط وظل
صامتا ، وكان الفلاح وامراته صامتين كذلك ، ولاحظا أن
ضيفهما نائم . كان النوم الذى استطاع أن ينامه أقرب ما يكون
إلى الموت .

ورغم هذا فعندما ارتفعت الشمس إلى كبد السماء ذهب للمرة
الثانية كى يرقد فى الفناء ، وكانت الشمس هى الشئ الوحيد الذى
اجتذبه وأثر فيه ، وكان لا يزال راغبا فى استنشاق هواء الصباح
البارد فى فتحتى أنفه ، وأن يرى السماء الشاحبة فوق رأسه ،
فهو يكره الشعور بأنه محبوس .

وعندما خرج الرجل صاح الديك الشاب، كانت صيحته ضئيلة ومثألة ولكن كان فى صوته شئ أقوى مما أصابه من كمد إذ إنه شعر بضرورة الحياة وبالرغبة فى أن يزعم زعقة تنم عن انتصار الحياة ، ووقف الرجل الذى مات يراقب الديك الهارب الذى تم الإمساك به ، وهو يرفرف بجناحيه أثناء نهوضه ويرتفع إلى الامام على أطراف أصابعه ، ويرفع رأسه ويفتح منقاره فى تحد آخر من جانب الحياة ضد الموت . وجلجلت أصوات الديك الشجاعة ورغم أن هذه الأصوات خفتت بسبب الدوبارة الملفوفة حول رجله إلا أنها لم تضحل ، ونظر الرجل الذى مات نظرة عارية إلى الحياة ورأى تصميمًا هائلًا فى كل مكان يقذف بنفسه فى ذرى موجات عاصفة أو ناعمة وأطراف الزبد تخرج غير مرئية من الزرقة ، وديكا يجمع بين السواد والصفرة أو ألسنة اللهب الخضراء وهى تخرج من أقاصى شجرة التين ، وجاءت أشياء الربيع ومخلوقاته تتوهج بالرغبة والتأكيد ، جاءت مثل قمم الزبد من ذلك الفيض الأزرق النابع من الرغبة غير المنظورة ومن بحر القوة الهائل وغير المرئى . جاءت محسوسة وتزدان بالألوان مضمحلة واهنة ولكن لا يصيبها الموت ، ونظر الرجل الذى مات إلى الغورة العظيمة التى يتسم بها وجود الأشياء التى لم تمت ،

ولكنه لم يعد يرى رغبتها المرتجفة من الوجود والكينونة ،
وسمع بدلا منها ذلك التحدى المجلجل لكل الموجودات
الأخرى .

· رقد الرجل دون أن يحرك ساكنا وفتح عينيه اللتين عرفتا الموت
واسعتين وفي عتمة لم تتبدد ورأى تصميم الحياة الخالد . وبادله
الديك نظرتة بنظرة مستوية ذات بريق .. بنظرة الطير الذى لا يرى
الأشياء بجلاء . ولم ير الرجل الذى مات الطائر وحده ولكنه رأى
معه موجة الحياة القصيرة الحادة التى كان الديك يعتلى قممتها .
وراقب حركة منقار هذا المخلوق الغريب وهو يلتهم بداخله بقايا
الطعام وينظر إلى عين الحياة وهو فى حالة دائمة من التنبه
والتأهب والمراقبة والتية بالنفس والحرص والحذر ، وصوت حياته
يرتفع بالنصر والتأكيد ولكنه يشعر فى نفس الوقت بالاختناق
بسبب الظروف التى شاعت أن تقيد حركته بدوابة . وبدا أن
الرجل يستمع إلى اللغة الغريبة التى تتميز بها الحياة نفسها فيما
كان الديك يقلد فى انتصار نقنقة دجاجته الأثيرة إليه وهى تضع
بيضضة . وهى نقنقة ما زالت تثير فى الديك الغصة الجوفاء
الناجمة عن التفاف الدوابة حول رجله ، وعندما ألقى الرجل شيئا
من الخبز للديك صاح الديك برقة غير عادية تحمل فى طياتها
الغواية والاغراء وهو ينبش الأرض مدخرا قطعة الخبز من أجل

الدجاجات التى أسرعَت نحوها بنهم حاملة إياها بعيدا بحيث لا تصل إليها الدويارة .

وبعد ذلك ، مشى الديك فى حالة من الرضا عن النفس خلف الدجاجات ، وفجأة تشنكلت قدماه عندما وصل إلى نهاية مربطه مما أدى إلى استسلامه فى حالة من الإنهيار . ثم ما لبث عرف الديك أن تقلص وانكمش وهو يرقد متكوما فى الظل . كان الديك لا يزال فى حدائته ورغم لمعان الريش فى ذيله فإن ريشه لم يكن قد كبر ونما تماما . ولم ينته به فيض الحياة ومدها وجزرها إلى النسيان إلا عند حلول المساء . وعندما اقتربت ببطء دجاجته المفضلة - وهى تتسكع دون مبالاة وتفرض اغراءها - إذا بالديك يعتليها وكل ريشة من ريشه تهتز ، وراقب الرجل الذى مات الطائر المنحنى على ظهر الدجاجة وهو يهتز اهتزازا عنيفا وغير منتظم فلم ير الديك بل رأى موجة عاتية من الحياة تلاطم فى لحظة موجة أخرى فى خضم ذلك المد الذى يمر به محيط الحياة . وبدا له أن مصير الحياة أكثر ضراوة وقدرة على الارغام من مصير الموت . وبدا مصير الموت كالظل بالمقارنة بمصير الحياة الصاخب وفورتها المحتدمة .

وفى الغسق عاد الفلاح إلى بيته مصطحبا أتانته وقال :

«يقال إن الجسد سرق من البستان وأن القبر أصبح فارغا .

وقد تم سحب الجنود الرومان الملاحين . وأخذت النسوة ينتحبن هناك .

وتطلع الرجل الذى مات إلى الرجل الذى لم يموت . وتكلم قائلاً :
«حسنا التزم الصمت وسوف تكون فى مأمن »

وأحس الفلاح بالارتياح . وبدأ منظره قذراً وغيباً بعض الشيء ،
كما بدا أنه لن يعرف أبداً وهج اللهب المتقد الذى سرى فى دماء
الديك الشاب المربوط من رجله . كانت جذوة النار قد انطفأت فيه
ولكن الرجل الذى مات قال لنفسه .

«... ما الداعى إذن إلى الارتفاع به . إن كتلا من طين الأرض
تقلب من أجل الترويح والتجديد دون حاجة إلى الارتفاع بها ،
فلتظل الأرض أرضاً - ولتقاوم السماء . لقد سعت إلى
الارتقاء بالأرض ولكنى كنت مخطئاً عندما حاولت التدخل . إن
نصيب المحرث من الدمار سوف يوضع فى أرض اليهودية ،
وسوف تقلب حياة هذا الفلاح مثل كتل الطين فى الحقل
التي تنمو عليها الأعشاب وتبقى جذورها تحتها . ليس فى مقدور
أى إنسان انقاذ الأرض من الحرث . المهم هو الحرث وليس
الخلاص ... »

ونظر إلى الفلاح بتعاطف ولكن الرجل الذى مات لم يعد راغباً
فى التدخل فى روح الرجل الذى لم يموت والذى لن يكون فى

استطاعته أبدا أن يموت إلا ليعود إلى التراب . دعه يعود إلى التراب عندما تحين ساعته . ولا تدع أحدا يحاول التدخل عندما يستعيده التراب إليه .

وهكذا سمح الرجل ذو الندوب والجراح للفلاح أن يمضى إلى حال سبيله . ولم يكن الفلاح ليولد من جديد . ومع ذلك قال الرجل الذى مات لنفسه : « هو مضى » .

وفى الفجر حين تحسنت حالة الرجل الذى مات ، نهض وسار إلى البستان بأقدام بطيئة مليئة بالقروح . لقد تمت خيانتة فى البستان كما تم دفنه فى البستان . وعندما تلفت حول سائر من نبات الغار بالقرب من وجه الصخرة ، رأى امرأة تحوم حول القبر ترتدى ثيابا زرقاء وصفراء . وألقت المرأة مرة أخرى نظرة متلصصة داخل فتحة القبر الشبيه بدولاب عميق الأغوار . ولكن القبر كان لا يزال فارغا . وعصرت يديها وأجهشت بالبكاء . وعندما ابتعد نظرها عن القبر رأت الرجل ذا الثياب البيضاء واقفا بجوار نبات الغار . وندت عنها صرخة ظنا منها أنه جاسوس جاء ليتلصص عليها . قالت :

« لقد أخذوه »

فقال لها :

« يا مريم المجدلية ! »

فمادت الأرض تحت قدميها لدرجة أنها كادت تسقط على الأرض لأنها عرفتة . قال لها :

«يا مريم المجدلية ! لا تخافى . إننى حى . لقد أنزلونى بأسرع مما ينبغى ولهذا عدت إلى الحياة . وبعد ذلك احتميت فى بيت» .

وارتج عليها فلم تعرف ما عساها أن تقول ولكنها جثت عند قدميه لتقبيلهما ، فقال لها :

«لا تلمسينى يا مريم . ليس الآن . إننى لم أشف من جراحى ولست بعد على صلة بالبشر» .

وانخرطت فى البكاء لأنها لم تكن تعرف ما عساها أن تفعل . وقال لها :

«دعينا ننتحى جانبا بين الشجيرات حيث يمكننا أن نتحدث على انفراد دون أن يرانا أحد» .

وتبعته المرأة وهى ترتدى وشاحها الأزرق وثوبها الأصفر بين الأشجار وجلس أسفل شجرة ريحان وقال :

«إننى لم أعد تماما إلى وعيى بعد . ماذا نفعل بعد ذلك يا مريم ؟» .

قالت : «يا سيد ! لقد بكينا من أجلك ! وسوف تعود إلينا» .

قال : «الذى راح راح . ونهايتى قد مضت . إن جدول الماء سيظل يجرى حتى تتوقف الأمطار عن ملئه . عندئذ سوف يصيبه الجفاف . إن تلك الحياة أصبحت منتهية» .

قالت له فى حزن : «وتتخلى عن انتصارك ؟» .

قال : «انتصارى يكمن فى أنى لست ميتا ، لقد عشت بعد رسالتى التى لم أعد أعرف عنها شيئا . هذا هو انتصارى . لقد ظلت على قيد الحياة بعد اليوم الذى تدخلت فيه فى حياة الآخرين وبعد انقضاء هذا التدخل ، إنى لا أزال رجلا . لا أزال شابا يا مريم ولم أبلغ بعد منتصف العمر . ويسرنى أن كل هذا قد انتهى . لقد كان هذا الأمر مكتوبا على جبينى . لكنى الآن سعيد بانتهائه وبانتهاء يوم تدخلى . إن المعلم والمخلص فى قد ماتا ويمكننى الآن أن أفعل ما شئت وأن أعيش حياتى الخاصة المفردة» .

ترامت كلماته إلى سمعها ولكنها لم تفهما تماما . ولكن كلماته جعلتها تشعر بخيبة الأمل .

وألحت فى قولها : «ولكنك سوف تعود إلينا» .

قال : «لست أعرف ما سوف أفعل . وسوف أعرف على نحو أفضل عندما يتم شفائى . ولكن رسالتى قد انتهت ، وكذلك تعاليمى . وأنقذنى الموت من تحقيق خلاصى . آه يا مريم أريد أن

اتبع طريقتي الخاصة فى الحياة فهى قدرى ونصيبى . إن حياتى العامة انتهت .. تلك الحياة التى كنت أشعر فيها بأهيمتى الشخصية ، والآن أستطيع أن أخدم الحياة وألتزم الصمت ، فلا يخوننى أو يغدر بى أحد ، أردت أن أتجاوز الحدود التى يمكن لرجلى وقدمى الوصول إليها . ولهذا جلبت الخيانة على نفسى ، وإنى أعرف أنى ظلمت يهوذا .. يهوذا المسكين ، لأنى مت وأعرف الآن حدودى . أستطيع الآن أن أعيش دون أن أحاول جاهدا التأثير فى الآخرين كما كنت أفعل ، فمتناول يدي ينتهى عند أطراف أصابعى وخطاى لم تعد تتجاوز أخمص قدمى . ورغم هذا فإنى على استعداد لعانقة جمهرة الناس ... أنا الذى لم أعانق أبدا أى إنسان عناقا حقيقيا . ولكن يهوذا وكبار الكهنة أنقذونى من خلاصى الشخصى . وسرعان ما أستطيع الالتفات إلى قدرى مثل مستحم فى البحر عند الفجر نزل لتوه إلى الشاطئ بمفرده .

فسأله : « هل تريد أن تبقى بمفردك من الآن فصاعدا . وهل انتهت رسالتك إلى عدم ؟ هل كانت كلها غير صادقة ؟ » .

قال : « نعم ! لم يكن عشاقك فى الماضى عدما . كانوا يمثلون الشئ الكثير بالنسبة لك . ولكنك أخذت أكثر مما أعطيت . عندئذ جئت إلى طلبا للخلاص مما وقعت فيه من افراط . وأنا أيضا من

ناحيتى مارست الافراط فى أداء رسالتى إذ إننى أعطيت أكثر مما أخذت ، وهذا أيضا أمر ينطوى على الويل والغرور . من ثم فقد أنقذنى بيلاطس وكبار الكهنة من الإفراط الشخصى فى أمر خلاصى ، يا مريم المجدلية لا تفرطى الآن فى العيش فهذا ينطوى على موت آخر فقط لا غير» .

وفكرت بمرارة لأنها كانت بطبعها تحتاج إلى العطاء بإفراط ولم تقدر أن تتحمل أن ينكر أحد عليه ذلك .

سألته : «ولن ترجع إلينا . هل عدت من الأموات من أجل نفسك فقط» .

سمع نبرة السخرية والتهكم فى صوتها . وتطلع إلى وجهها الجميل الذى لا يزال مفعما بحاجتها المفرطة إلى الرغبة فى الخلاص مما كانت عليه تلك المرأة التى تصطاد الرجال حسبما تشاء . وغطتها سحابة الضرورة فى أن يتم إنقاذها مما كانت عليه من حواء القديمة والعنيدة التى احتضنت رجلا كثيرا وأخذت أكثر مما أعطت . أما الآن فقد اعتراها قدرها الآخر ، فأرادت أن تعطى دون أن تأخذ ، وذلك أيضا كان قاسيا وصعبا على جسد المرأة النابض بالدفء .

قال : «لم أقم من الأموات حتى أسعى إلى الموت مرة أخرى» .

وتطلعت إليه ورأت الإنهاك مرة أخرى على وجهه الممتقع ،
وخيبة الأمل الهائلة فى الاحلام تطل من عينيه السوداوين
واللامبالاة المختفية . وشعر بها وهى تنظر إليه فتحدث إلى نفسه
قائلا : «إن اتباعى الآن يريدون موتى مرة ثانية ، لأنى قمت من
الأموات على نحو يختلف عما يتوقعونه منى » .

قالت له مريم المجدلية : «ولكنك سوف تأتى إلينا لترانا نحن
الذين أحببناك » .

ضحك قليلا ثم قال : «نعم» وبعد ذلك أضاف « هل لديك قليلا
من النقود ؟ هل أعطيتنى قليلا من النقود . سوف أردّها إليك » .
كانت النقود فى حوزتها قليلة ، لكن سرها أن تعطيها له.
قال لها : «هل تفكرين فى أننى قد أتى إليك وأعيش معك فى
بيتك ؟» .

تطلعت إليه بعينين زرقاوين كبيرتين تلمعان ببريق غريب .

سأله بنبرة فوز خاص : «الآن ؟» .

فرد الرجل المنكمش فى نفوره من أى فوز من أى نوع سواء
كان هذا الفوز خاصا به أو بأى شخص آخر :

«ليس الآن ! ولكن فيما بعد عندما تلتئم جروحي .. وعندما
تربطنى بالجسد صلة » .

تساقطت منه الكلمات متعثرة . وعرف فى قرارة قلبه أنه لن يذهب أبدا ليعيش فى دارها لأنه رأى وميض النصر يلمع فى عينيها ، كما رأى ذلك الشره نحو العطاء . ولكنها تمتعت فى نشوة وهمهمت قائلة : « أه ! إنك تعرف استعدادى لهجران كل شيء من أجلك » .

فأجابها بقوله : « نعم . ولكنى لم أطلب منك ذلك » .

وانتابه مرة أخرى شعور بالنفور والاشمئزاز من كل الحياة التى عرفها . وعاوده الغثيان العظيم الذى أصابه عقب خيبة أمله فى أحلامه ، كما شعر بسن حربة يمزق أحشاءه . وجرمز هذا الرجل تحت شجيرات الرياحان منهوك القوى . ورغم ذلك كانت عيناه مفتوحتين . ونظرت إليه مريم المجدلية مرة أخرى ، ورأت أنه لم يكن المسيح . المسيح لم يقم من الأموات . لقد تبدد حماسه ونقاؤه الحارق وشبابه المستغرق فى الفكر . فشبابه أصابه الموات . أما هذا الرجل فهو فى منتصف العمر وقد نفخ عن نفسه كل الأوهام واتسم بعدم اكتراث مروع وتصميم يعجز الحب نفسه عن الانتصار عليه . هذا الرجل ليس بالسيد الذى عبدته كل هذه العبادة وليس ذاك الشاب الملهب المنصرف عن الجسد الذى يغلى من شأن الروح فقد صار أقرب ما يكون إلى

العشاق الذين عرفتهم فى الماضى ولكنّه يختلف عنهم بقدر أكبر من عدم الاكتراث بالأمور الشخصية وقدر أقل من الحساسية .

رأت المرأة هذا التغير ففقدت اتزانها واهتز حبها المنتشى والمتألم الذى بلغ حد العبادة والتقديس . هذا الرجل الذى قام من الأموات سدد ضربة قاضية ومميتة إلى الأحلام التى كانت تراودها .

قال لها : «ينبغى أن تنصرفى الآن . ولا تلمسينى فأنا فى الموت . سوف أعود هنا مرة ثانية فى اليوم الثالث . تعالى إذا شئت عند الفجر وسوف نتبادل الحديث» .

انصرفت المرأة وهى فى حالة من الانزعاج والتهدم . ولكن عقلها نبذ مرارة الحقيقة عند انصرافها . واستحضرت فى مخيلتها حالة النشوة والتعجب لأن السيد قام من الأموات ولم يعد ميتا . لقد قام من الأموات المخلص وصانع العجائب الذى يسمو بالأشياء إلى أرفع مرتبة ! وهو لم يقم من الأموات كرجل ولكن كرب طاهر ينبغى عليه ألا يلمس جسد بشر والذى سوف يرتفع إلى الفردوس وهو فى حالة من الاستغراق . إن قيامته أعظم العجائب وأقربها إلى عالم الأشباح .

وفى نفس الوقت استجمع الرجل الذى مات قواه أخيرا .
ثم شق طريقه بالتدريج إلى بيت الفلاح والفلاحة وكان
سعيدا برجوعه إليهما وابتعاده عن مريم المجدلية وعن
رفاقه ، لأن الفلاحين عرفوا خمول الدنيا وسوف يسمحان
له بالراحة وسوف يمتنعان حتى ذلك الوقت عن ممارسة
الضغط عليه .

كانت المرأة فوق سطح الدار تبحث عنه ، وكانت تخشى
انصرافه فقد أصبح وجوده فى الدار فى نظرها مثل الخمر الرقيقة
الحانية . وأسرعت نحو الباب لتلقاه .

سألته : « أين كنت ؟ ولماذا انصرفت ؟ » .

« كنت أتمشى فى البستان حيث رأيت صديقا لى أعطانى قليلا
من المال هذا المال من أجلك فخذيه .

ومد يده الناحلة التى تحمل المال الزهيد . هو كل ما استطاعت
مريم المجدلية أن تعطيه إياه . ولعت عينا زوجة الفلاح عند رؤية
النقود إذ كانت النقود لديها شيئا نادرا . ثم قالت : « أه يا سيدى .
هل حقا هذه النقود ملك لى ؟ » .

أجاب : « خذوها واشترى بها خبزا لأن الخبز يعطى
الحياة » .

بعدئذ رقد فى الفناء مرة أخرى وقد أشعره بالغثيان إحساسه بالارتياح لأنه أصبح وحيدا مرة أخرى . كان بإمكانه أن ينفرد بنفسه فى حضرة الفلاح وزوجته . ولكن أصدقاءه لن يسمحوا له قط بالانفراد بنفسه . وفى شعوره بالأمان أصبح الديك الشاب عزيزا عليه وهو يصيح فى حماسة الحياة العاجزة . فقد انتهى به الأمر إلى الخضوع للاذلال الناجم عن ربط رجله وتقييد حركتها . وفى ذلك اليوم نهضت الأتان تهز ذيلها تحت الحظيرة . ومدد الرجل الذى مات جسده على الأرض منصرفا تماما عن الحياة بسبب شعوره بغثيان الموت فى الحياة .

وأحضرت له المرأة خمرا وماء وكعكا حلوا المذاق . وقامت بإيقاظه فأكل قليلا إرضاء لها . كان اليوم حارا . وجرمزت المرأة كى تتمكن من خدمته فوقعت أنظاره على نهديها وهما يتحركان بعيدا عن جسدها المتواضع الذى يكسوه ثوبها الواسع الفضفاض . وعرف أنها تمننت لو أنه كان راغبا فيها ، فهى لم تتجاوز مرحلة الشباب ولا تخلو من الحلاوة . ورغم أنه لم يعرف امرأة طيلة حياته فقد كان على استعداد لأن يرغب فيها لو أنه استطاع ذلك . ولكن لم يكن فى مقدوره أن يرومها رغم شعوره الرقيق نحو جسدها المتواضع الناعم الملمس وهى فى جلستها المجرمزة . كانت أفكارها ووعيتها الشئ الوحيد الذى لم يستطع

مخالطته والامتزاج به . كانت مسرورة وراضية بالنقود ، وأرادت أن تأخذ منه شيئا يفوق النقود . أرادت أن يحتضنها بجسده.. ولكن روحها الصغيرة كانت صعبة وقصيرة النظر وتجنح إلى التملك والاستحواذ كما كان جسدها يعتمل بقليل من الشراة والنهم ولا يختلج بالاجلال الرقيق نحو الهدية المرتدة إلى صاحبها. ولهذا كلمها كلمة هادئة ولطيفة ثم انصرف عنها فلم يكن فى استطاعته أن يلمس الجسد الشخصى الصغير والحياة الشخصية الكائنة فى هذه المرأة أو فى غيرها من النساء فابتعد عنها دون أن يلوى عن شئ .

وبعد قيامته من الأموات أدرك أخيرا أن الجسد أيضا لديه حياة صغيرة وأن الحياة الأعظم تقبع وراءها . كان بكرا يحجم عن حياة الجسد الصغيرة الشرهة . ولكنه الآن عرف أن البكورة ليست إلا شكلا من أشكال الشره والنهم وأن الجسد يقوم من الأموات كى يعطى ويأخذ ويأخذ ويعطى دون نهم أو شره . الآن عرف أنه قام من الأموات من أجل المرأة أو النساء اللاتى يعرفن حياة الجسد الأعظم دون نهم فى العطاء أو نهم فى الأخذ فهو يستطيع معهن الامتزاج بأجسادهن ، ولكن كان عليه بعد أن مات أن يتحلى بالصبر عارفا أن هناك وقتا بل أبدية من الوقت . ولم تكن تحركه أية رغبة نهمة لا فى إعطاء نفسه

للآخرين ولا فى الاستحواذ على أى شئ من أجل نفسه ولاغرو فهو
قد مضى .

ثم عاد الفلاح من عمله إلى داره وقال :

«يا سيد أشكرك على النقود ولكننا لا نريدها . وكل ما أملك هو
ملك لك» وحزن الرجل الذى مات لأن الفلاح وقف هناك بجسده
الشخصى الضئيل ، وقد امتلأت عيناه باللؤم ولمعتا ببريق الأمل
فى حصوله على مكافأة أكبر من المال فى وقت لاحق . صحيح أن
الفلاح استضافه مجانا معرضا بذلك نفسه لخطر عدم الحصول
على أى مكافأة أو مقابل . ولكن الأمل المائل فيه كان يتسم
باللؤم . ومع ذلك فهذا ما جبل الانسان عليه . ولهذا فعندما
تقدم الفلاح لمساعدته كى ينهض لأن الليل أرخى سدوله بادر
الرجل الذى مات بقوله : « لا تلمسنى يا أخى فأنا لم أصعد بعد
إلى أبى » .

وسطعت الشمس الحارقة بروعة أعظم وأضفت لمعانا أكثر على
الديك الشاب . ولكن الفلاح أحضر دويارة جديدة وربط بها رجل
الديك ، وهكذا أصبح الطائر سجيناً . ولكن لهيب الحياة فى صدره
توهج إلى حد الاحتراق ، ولهذا نظر الديك شذرا وباستعلاء إلى
الرجل الذى مات . فابتسم هذا الرجل له ناظرا إليه بإعزاز كبير

ومخاطبا إياه بقوله : « لا ريب إنك صعدت إلى الأب » ورد الديك الشاب عليه بصرخة أطلقها .

وفى فجر اليوم الثالث ذهب الرجل إلى البستان حيث استغرق فى التأمل وهو يفكر فى حياة الجسد الأعظم التى تتجاوز الحياة الشخصية الضيقة والضئيلة . ولهذا جاء عبر الساتر الكثيف المكون من الغار وشجيرات الريحان بالقرب من الصخرة . ورأى ثلاث نسوة بالقرب من القبر . كانت مريم المجدلية واحدة منهن والأخرى تلك المرأة التى قال إنها أمه . أما الثالثة فكانت امرأة يعرفها باسم حنة . تطلع إلى فوق فرأهن جميعا ووقعت أبصارهن عليه فدخل الخوف فى قلوبهن .

وقف مشدوها على مبعدة عارفا أنهن جئن إلى هناك ليطلبن بجسده . ولكنه لن يعود إليهن بأى حال من الأحوال . وشاهد شحوبهن فى ظلال الصباح الداكن الذى ينثر قطرات المطر . فأدار رأسه بعيدا عنهن ولكن مريم المجدلية أسرعته نحوه قائلة :

« لم أحضرهن فقد جئن من تلقاء أنفسهن . انظر ، إني جلبت لك نقودا ! لم لا تتحدث إليهن »

وقدمت إليه بعض القطع الذهبية ، فتناولها قائلاً :
«هل لي أن أحتفظ بهذه النقود ، سأحتاج إليها ، لا أستطيع أن
أتحدث إليهن لأنى لم أصعد بعد إلى الأب . ويجب على أن أترككن
الآن .

سألته مريم المجدلية : «إلى أين تذهب؟» .
نظر إليها ، فأدرك أنها تحاول وضع يدها على الرجولة فى
الرجل الذى كان قد مات . تلك الرجولة التى عرفها فى
شبابه ورسالته وطهارته وخوفه وفى حياته الصغيرة وعطائه
دون أخذ .

قال : «يجب أن أذهب إلى أبى» .
صاحت وهى تتلفت حولها وتشعر بأنها لا تزال تستعذب
الحسرة والكمد القديم :
«وتتركنا ؟ هذه هى أملك!» .

«ولكن يجب أن أصعد الآن إلى أبى» قال هذا ثم تراجع بين
الشجيرات والتفت بسرعة وابتعد وهو يحدث نفسه قائلاً : «لست
الآن أنتمى إلى أحد ولا تربطنى بأحد صلة . ورسالة الإنجيل
قد تركتنى . يا للحسرة فأنا لا أستطيع حتى أن أصنع حياتى
وما يتعين على إنقاذه .. وفى مقدورى أن أتعلم كيف أكون
بمفردى» .

ولهذا رجع إلى دار الفلاح وزوجته وإلى الفناء حيث كان الديك الشاب مربوطا من رجله بدويارة . وكان لا يريد أن يرى أحدا ، فقد وجد أنه من الأفضل له أن يبقى بمفرده لأن وجوده بين الناس أشعره بالوحدة والوحشة .

وَضَمَدَتِ الشَّمْسُ وَطِيبَ الرِّبِيعِ النَّاعِمُ جُروحَهُ . حتى الجرح المفتوح في أحشائه الناجم عن خيبة أمله في أحلامه وآماله بدأ يندمل . وأيضا تماثلت إلى الشفاء حاجته إلى الرجال والنساء ورغبته المحمومة في الوصول إليهم وفي أن يقوموا بخلاصه . وكل الذي جاء نتيجة اتصاله باللمس مع البشر ينبغى من الآن فصاعدا أن يجىء دون عدوان أو تجاوز أو إرغام . قال لنفسه : «لقد حاولت إرغامهم على العيش فأرغموني على الموت . وهذا هو حال الإرغام دائما . إن الارتداد يعوق التقدم . والآن حان وقتى كى أكون وحيدا .

ولهذا توقف عن الذهاب إلى البستان ، وظل راقدا بلا حراك وهو يتطلع إلى الشمس أو يتمشى عند الغسق عبر منحدرات الزيتون وسط أعواد القمح الخضراء التى نمت فى كل يوم مشمس شبرا أعلى مما كانت عليه ، ودائما ما فكر هكذا : «يا له من شئ طيب أن أكون قد أوفيت رسالتى وتجاوزتها . الآن أستطيع أن أكون بمفردى وأترك جميع الأشياء لذاتها . لتصبح شجرة التين

جرداء إذا شاعت ذلك ، وليبق الأثرياء على ثرائهم . إن طريقى
يخصنى وحدى .

وتجمعت الأوراق الوارفة على شجرة التين ، ودماء الشجرة
الوضاءة الرقراقة الخضراء يسرى فى عروقها . وصار الديك
الشباب أكثر لمعانا وتلألؤا مع زيادة سخونة الشمس المحرقة .
وغربت الشمس أكثر وأكثر فى بهاء وجلال عن الهواء الأحمر
الوجنتين والموشى بالذهب . وكان الرجل الذى مات واعيا وعيا تاما
بكل شئ . وفكر هكذا :

« ليست الكلمة إلا حشرة همجة صغيرة تلدغ فى المساء . إن
الانسان تعذبه الكلمات التى تشبه حشرات الهمجة الدقيقة وهى
تتبعه حتى جوف القبر . ولكنها لا تستطيع أن تذهب أبعد من
القبر . لقد مررت الآن على المكان حيث تعجز الكلمات عن اللدغ
وحيث يصفو الهواء . ليس هناك ما يقال وأنا وحيد داخل جلدى
الخاص بى الذى يكون الجدران التى تحيط بكل أملاكى » . وهكذا
برأ من جراحه وتمتع بخلود حياته الخالية من التوتر لأنه أسقط
عنه وهو فى القبر تلك الخية الخائقة التى نسميها الحرص ، لأنه
ترك فى القبر نفسه التى تحاول جاهدة والتى تحرص وتؤكد
ذاتها . وشفيت نفسه التى لا تهتم وأصبحت متكاملة داخل جلده .

وابتسم لنفسه فى انفراد خالص هو نوع من الخلود . عندئذ قال
لنفسه :

«سوف أجوب الأرض والتزم الصمت . فلا شىء أكثر مدعاة
للعجب والإدهاش من أن يكون المرء وحيدا فى عالم الظواهر
الذى يمر بالحياة الصاخبة ، ولكنه رغم ذلك عالم قد انفرط
عقده . إننى لم أر هذا العالم فقد أعمانى عنه ما أشعر به من
اضطراب داخله . سوف أجوب فى حركة عالم الظواهر لأن لا شىء
يتركنى وحيدا وحدة خالصة سوى حركة جميع الأشياء وسط
نفسها .»

واستغرق فى ذاته يتأملها ويستكنها ، وقرر أن يكون طبيبا
مداويا لأنه لا يزال يمتلك القوة التى تشفى أى إنسان أو طفل يثير
عطفه ويلمس شغاف هذا العطف . ولهذا قام بقص شعره وحلاقة
لحيته طبقا للموضة اللائقة ، وابتسم لنفسه . وأحضر لنفسه أحذية
والوشاح اللائق كما لبس اللباس اللائق فوق رأسه فخبأ كل
الندوب الصغيرة فيه ، قال الفلاح :

«يا سيد هل تنصرف عنا؟».

«نعم فقد حانت ساعتى كى أعود إلى الناس» .

وأعطى الفلاح قطعة من النقود وقال له :

« أعطنى الديك الذى هرب منك. والمربوط الآن من رجليه لأنى سوف أخذه معى » .

وهكذا أعطى الفلاح الديك للرجل الذى مات مقابل قطعة من النقود . وعند انبلاج الفجر خرج الرجل الذى مات ليبدأ رحلته فى عالم الظواهر ويكتمل فى وحدته ووحشته فى قلب هذا العالم لأنه فيما مضى استغرق فيه أكثر من اللازم ، وبعدئذ قضى نحبه والآن يتعين عليه أن يغود وأن يكون وحيدا وسطه . ورغم ذلك فإنه حتى الآن لم يذهب لوحده تماما ، لأنه عند انصترافه تحمل الديك تحت ابطه بينما كان ذيله يرفرف ، وقد اشرب رأسه فى اضطراب لأن الديك أيضا خرج ليغامر لأول مرة فى عالم الظواهر الفسنيح المشتمل كذلك على حركة مجموع الديوك . وذرفت المرأة الفلاحة عبرات قليلة ، ولكنها دخلت الدار بعد ذلك لتتفحص مرة أخرى - وهى الفلاحة - قطع النقود ، وبدا لها أن بريقا مدهشا ينبعث من قطع النقود .

واستمر الرجل الذى مات فى سيره وكان يوما مشمساً ، والتفت حوله وهو يمضى فى طريقه ووقف جانبا عند مرور القطار المزدهم بالركاب والمتجه إلى المدينة وقال لنفسه :

«عجيب هو عالم الظواهر ، فهو يجمع بين القذارة والنظافة فى آن واحد ! إنى لم أتغير ورغم ذلك فإنى مفكك الأجزاء والحياة

تمور فى تنوعها . لماذا أردت من الحياة أن تمور على نفس
الوتيرة . إنه لشيء مؤسف ! لقد كنت ألقى المواعظ عليهم ومن
المحتمل أن تتحول الموعدة إلى كتلة من الطين وأن تغلق النافورات
أكثر مما تغلقها تلاوة مزمور أو الشدو بأغنية . إننى ارتكبت خطأ
، فقد ظننت أنهم أعدمونى بسبب إلقاءى المواعظ عليهم غير أنه لم
يكن باستطاعتهم فى النهاية أن يقوموا بإعدامى ، لأننى الآن قد
قمت من الأموات فى وحشتى وورثت الأرض لأنى لا أطلب لنفسى
بأى حق فيها . . وسوف أكون وحيدا فى فورة جميع الأشياء . وفوق
كل شيء وقبل كل شيء سوف أشعر أبدا بالوحشة والانعزاد ولكن
يجب على أن ألقى بهذا الطائر فى الثورة التى يمر بها عالم
الظواهر لأنه يتعين عليه ركوب الموجة . كم هو يتدفق بدفء الحياة!
وسريعا سوف أتركه فى مكان ما بين الدجاجات ، وربما أقابل فى
إحدى الأمسيات امرأة تستطيع غواية جسدى الذى قام
من الأموات وتتركنى بالرغم من ذلك فى انفرادى لأن جسدى
رغباتى قد مات . ولست ألتصق أحدا فى أى مكان . ولكنى
كيف أعرف ! فكل شيء على أقل تقدير هو الحياة . ويلمع
هذا الديك بالانفيساد البراق رغم أنه يستجيب لاغراء
الدجاجات . وسوف أسرع للوصول إلى تلك القرية الواقعة

على التل أمامى . لقد دب فى الاعياء والوهن . وأريد أن أغلق
عينى فلا أرى شيئا .

وأسرع قليلا تحذوه الرغبة فى الانتهاء من سيره ، حتى لحق
برجلين يمشيان فى بطء ويتبادلان الحديث ، وتذكرهما لأنه
عرفهما أثناء حياته التى اضطلع فيها برسالته . وحياهما ، لكنه
لم يكشف عن نفسه فى الفسق فلم يتعرفا عليه ، قال لهما :
«ماذا حدث للرجل الذى قال إنه سيصير ملكا والذى قتل من
أجل ذلك ؟»

فردا عليه بريية وشك :

«ماذا يدعوك للاستفسار عنه ؟» .

«كنت أعرفه وفكرت كثيرا فى أمره» .

أجابا قائلين : «إنه قام من الأموات» .

«إيه ! أين هو وكيف يعيش ؟» .

«لا نعرف لأنه لم يكشف لنا عن هذا الأمر . ومع ذلك فقد قام
من الأموات وسوف يصعد إلى الأب بعد وقت قصير» .

«إيه ! وأين يوجد الأب» .

«أنت لا تعرف فلا بد وانك من غير اليهود ! الأب موجود فى
السماء فوق السحاب وقبة السماء» .

«وهل هذا حقيقى ؟ إذن كيف سيصعد ؟» .

.. إنه سيصعد فى مجده مثلما صعد النبى إلیا .

«حتى إلى السماء ؟» .

«نعم إلى السماء» .

«إذن فهو لم یقم من الأموات بجسده ؟» .

«بل قام بجسده» .

«هل سیأخذ جسده معه إلى السماء ؟» .

«الأب الذى فى السماوات سوف یرفعه» .

وأمسك الرجل الذى مات عن الكلام لأن كلماته قد انتهت ، ولأن الكلمات تلد الكلمات تماماً . مثلما تتكاثر بعوضة البرعشة . ولكن الرجل بادر بسؤاله :

«لماذا تحمل دیکا معك ؟» .

«إننى أقوم بالشفاء . وهذا الديك یتحلى بالفضيلة» .

«أو لست تؤمن ؟» .

«إنى أومن بأن الطائر مفعم بالحياة والفضيلة» .

وساروا بعد ذلك فى صمت ، شعر بأنهم یكرهون إجابته . فابتسم لنفسه لأن الظاهرة الخطرة فى العالم تتمثل فى

رجل تتسم معتقداته بالضيق . وانتفاء الرحابة وينكر حق جاره فى
أن يترك وشأته . وعندما جاعوا إلى أطراف القرية وقف الرجل
الذى مات ساكنا لا يتحرك فى عتمة المساء . وقال بصوته
العجوز الهرم :

«أستما تعرفانى ؟» .

فصاحا بخوف : «يا سيد !» .

أجاب وهو يطلق ضحكة رقيقة وناعمة : «نعم» ثم استدار بعيدا
هابطا فى اتجاه إحدى الحارات الجانبية . واختفى خلال أسفل
الحائط قبل أن يدركا ذلك .

ثم جاء إلى حانة تجمعت فى فنانها صفار الحمير . وطلب
بعض الفطائر فصنعوها له . ونام تحت حظيرة ولكنه استيقظ فى
الصباح على صياح الديكة المرتفع وسمع صوت ديكه يجلجل فى
أذنيه . ثم رأى ديك الحانة يتقدم من أجل القتال مع ديكه
تتبعه جماعة كبيرة من محظياته من الدجاج . فهب الديك
الذى يحمله الرجل الذى مات قافزا لتبدأ المعركة بين
الديكين . وجرى صاحب الحان لينقذ ديكه ولكن الرجل الذى
مات قال له :

«إذا انتصر ديكى فسوف أعطيك إياه وإذا خسر فسوف تأكل
لحمه» .

وهكذا حارب الطائران بشراسة وتمكن ديك الرجل الذى مات
من قتل الديك العادى الموجود فى فناء الحانة . وعندئذ قال الرجل
الذى مات إلى ديكه الشاب :

«أنت على أقل تقدير قد وجدت مملكتك كما وجدت إناثا
لجشذك . وسوف يكتسب انفرادك روعة يزيد من رونقها اغراء
دجاجاتك» .

ثم انصرف تاركا ديكه هناك واستمر فى السير مسنافة أبعد
داخل عالم الظواهر المتكون من تعقيدات واسعة من التشابكات
والاغراءات ، وسأل نفسه سؤالا حثرا :

«من أى شئ يمكن تخليص هذه الدوامة المحيرة للألباب التى لا
تنتهى ثم ماذا يودى إليه تخليصها؟» .

ومضى لحال سبيله وكان بمفرده ، غير أن طريق العالم
تجاوز التصديق عند مشاهدة التشابك الغريب للعواطف
المتناججة . والظروف والإرغام فى كل مكان ولكنه رأى على
الدوام أرق الارغام المروع . إن ما يبعث الناس على الجئون
هو الخوف . الخوف التهنائى من الموت . ولهذا فقد تعين
عليه دائما أن يتحرك إلى الأمان لأنه إذا مكث هناك فسوف
يقوم جيرانه بربط خوفهم وبلطجتهم حصول رقبتة . لم يكن
هناك ما يمكن لمسه لأن الجميع فى تأكيد ملتصات لأننا أرادوا

أن يفرضوا الارغام عليه وأن ينتهكوا وحدته النابعة من دخيلة نفسه . إن جنون المدن والمجتمعات والزرافات والجماعات أن تفرض الارغام على الإنسان الفرد بل على جميع الناس بدون استثناء . وجنون الرجال والنساء على حد سواء يكمن فى خوفهم الذاتى من فتائهم . وفكر فى رسالته التى حملها بنفسه وكيف أنه حاول أن يفرض الحب عنوة على جميع البشر . وعاد إليه الإحساس القديم بالغثيان لأنه لا تقوم لصلة البشر بالبشر قائمة دون محاولة ناعمة ودقيقة لفرض الارغام .. لقد سبق أن أرغم حتى الموت . وتفجر الغثيان بسبب جرحه القديم من جديد ونظر مرة أخرى إلى العالم بنفور وهو يخشى ملمس هذا العالم الدنى.

(٢)

هبّت الريح باردة وعاتية من الأرض الداخلية .. من الثلوج غير المنظورة فى لبنان .. ولكن المعبد المواجه للجنوب والغرب فى اتجاه مجبر كان فى مقابلة شمس الشتاء الرائعة وهو يسير فى الانحناء المؤدى إلى البحر . وغمر الدفء والتوهج المساحة بين أعمدة الخشب المطفى . ولكن البحر كان خافيا عن الأنظار بسبب الأشجار ، رغم سماع طرطشة الماء بين حفيف شجر الصنوبر .

واكتسب الهواء اللون الذهبى فى فترة بعد الظهيرة . ووقفت المرأة التى تقوم على خدمة ايزيس فى رداؤها الأصفر وتطلعت بناظريها إلى المنحنيات الشديدة الانحدار المفضية إلى البحر حيث اكتسبت أشجار الزيتون لون الفضة تحت وطأة الريح مثل لون طرطشة الماء المتطايرة . كانت بمفردها باستثناء الإلهة التى كانت معها . وفى فترة بعد الظهيرة الشتوية وقف الضوء منتصباً ورانعا بعيدا عن البحر غير المرئى غامرا تلال السواحل . وذهبت تلك المرأة فى اتجاه الشمس خلال أشجار الصنوبر والبسوط الدائم الخضرة فى منطقة البحر المتوسط والتى أقيم المعبد فى وسطها على لسان صيفير من الأرض مغطى بالأشجار يقع بين خليجين .

سارت مسافة قصيرة للغاية وقفت بعدها بين جذوع أشجار الصنوبر الواقعة على الأطراف على الصخور التى تلاطمت بها أمواج البحر وشفطتها فى مواجهة المكان المكشوف . حيث تلات شمس الشتاء فى مجد وعظمة . كان البحر داكنا يكاد يكون شديد الزرقة وينحسر بعيدا عن الأرض يتوجه البياض . وجاءت يد الريح لتمسيحه بالظلال على نحو غريب وهى تمسح شجر الزيتون بالفضة على المنحدرات ، ولم يكن هناك أى قارب فى عرض البحر .

كانت القوارب الثلاثة قد تم سحبها على الحصى الأملس الشديد الانحدار الموجود فى الخليج الصغير بالقرب من البرج الزمادى الصغير . وبمحاذاة حافة الحصى الأملس امتد حائط مرتفع يحيط بحديقة تحتل الجزء المنبسط القصير من الخليج الذى ارتفع على هيئة شرفات أعلى المنحدر الساحلى الشديد الانحدار . وهناك فى أعلى الطريق قليلا ارتفعت دار منخفضة بيضاء داخل سور آخر تطل على البحر . وكانت الدار الفخيمة موحشة وحشة الساحل، وفى مثل بيضاء ولكن على ارتفاع أكبر بكثير حيث أخذت شجيرات الزيتون الطريق منرة أخرى أمام أشجار المصنوبر ، امتد الطريق الساحلى وهو يحافظ على ارتفاعه حتى توجد أعلى القنوات العميقة الصناعية المحفورة من أجل تصفية المياه المنحدرة فى اتجاه الخلجان . وانهمرت على كل هذا فى جلالها شمس يناير الساطعة فى فترة بعد الظهر أو لعل هذا كله كان جزءا من الشمس العظيمة والوهج والبيادة ووجشبة البحر الطاهرة واللمعان الخالص .

وجرمز بين الصخور أعلى الماء الداكن المتأرجح فى صعوده وهبوطه اثنان من العبيد نصف عاريين وهما يعدان طهى الحمام لوجبة المساء . وقام العبدان بقطع رقبة حمامة حية زرقاء اللون

وتركنا نقاط الدم تسقط بتركيز شديد فى ماء البحر الذى تارجح بين الارتفاع والانخفاض . كانا يقومات بتقديم بعض الأضحيات أو بتلاوة بعض التعاويذ . ووقفت كاهنة المعبد وهى تبدو صفراء وبياضاء وبمفردها كأنها زهرة النرجس الشتوية بين أشجار الصنوبر فى شبه الجزيرة المحدبة الصغيرة حيث يختبئ المعبد سرا . وكانت تراقب .

وأسرعت حمامة تجمع بين اللونين الأسود والأبيض والتي يفيض بياضها بالحياة مثل شبح هارب على سطح البحر الداكن المنخفض وانطلقت تلاحق الريح وهى تميل وتعتلى شجر الصنوبر وتحلق طائفة فوق هذه الأشجار لتبتعد عن المكان وتبدو ضئيلة مثل ذرة الغبار فى الأرض الداخلية . وسمعت الكاهنة صوت صراخ الغلام عيد الحديقة والبالغ من العمر سبعة عشر عاما ، ويرفع الغلام ذراعيه إلى السماء فى غضب بينما ابتعدت الحمامة عنه ومد ذراعيه وهو عريان وغاضب وفى مبة الشباب . ثم التفت وأمسك بالفتاة وقد اجتاحه غضب عارم ولكمها بقبضة يده الملتفة بدم الحمامة . ورقدت وهى تخبئ وجهها المرتعش السلبى . وأخذت المرأة المالكة لهما تراقب . وبينما هى تراقب إذ بأنظارها تقع على شخص آخر يراقب ... شخص غريب يلبس قبعة عريضة وعباءة رمادية من النوع المغزول داخل المنازل . وهو رجل ذو لحية داكن

البشرة يقف على الطريق المغطى بالحصى والقائم على صخرة هي
عنق أرض المعبد الموجود فى شبه الجزيرة . ورأته بسبب تطاير
عباعته الرمادية الداكنة فى الهواء ورأها على الصخور مثل زهرة
نرجس تجمع بين البياض والصفار بسبب تطاير فستانها المصنوع
من الكتان فى الهواء تحت وشاح من الصوف . وراقب كلاهما
العبدان .

وفجأة توقف الغلام عن ضرب الفتاة وجرمز من فوقها
ولسها محاولا أن يجعلها تتكلم . ولكنها رقدت خامدة تماما
ووجهها إلى أسفل على الصخر الناعم . وأحاطها بذراعيه
ورفعها ، غير أنها انزلت على الأرض كأنها جثة هامدة . ولكن
السنزعة التى انزلت بها تنسم على أنها لم تكن ميتة على
الإطلاق . وفى يأس امسك الغلام بها من ردفها وشدها إلى
صدره وقلبها . بدت خامدة كما بدت كل قواها منحصرة فى
كتفها . ودون وعى منه وبإصرار قلبها كى يعدلها . ثم دفع كلتا
يديه بين فخذيها ليعيد الواحد منهما عن الآخر . وفى برهة اعتلاها
بذلك الجنون الأعمى المذعور الذى يشعر به أى مراهق لهيب أولى
عواطفه . واهتز جسده الشاب بسرعة ملتاثة وهو يرقد عاريا
على جسدها لا يبصر لمدة دقيقة . ثم همد جسده تماما كما لو
كان الموت قد أصابه .

ثم رفع رأسه متلصصا فى رعب . نظر من حوله متلصصا
ونفض ببطء على قدميه وهو يعدل من غطاء حقويه المهلhel .
وبعدئذ رأى على الصخور البعيدة سيدته كاهنة ايزيس . وما
أن وقع بصره عليها حتى تقلص كل جسمه فى خوف . ثم فى
حركة غريبة ذليلة وخانعة سار بخطى قصيرة كالأعرج نحو باب
الحائط .

والتفتت الكاهنة بعيدا . العبيد ! ليتولى المشرف عليهم أمر
مراقبتهم . لم تظهر هذه الكاهنة أى اهتمام . وذهبت ببطء خلال
أشجار الصنوبر للمرة الثانية وعادت إلى المعبد القائم فى بقعة
صغيرة مكشوفة وخالية من الأشجار .

فى وسط اللسان الأرضى . كان معبدا صغيرا مصنوعا من
الخشب مدهونا باللون البنى والأبيض والأزرق ويوجد
أمامه أربعة أعمدة خشبية ارتفعت على القمة مثل سيقان
براعم زهرة اللوتس المصرية المنتفخة وهى تسند السقف
وأىضا تسند زهرات اللوتس المفتوحة ذات النتوءات الحادة
الرؤس الموجهة فى الافريز الخارجى الذى استبدار حول
التجاويف . وأدت سلمتان منخفضتان إلى المنصة الموجهة
أمام العميدان وكانت الغرفة خلف العميدان مفتوحة .
وهناك انتصب مذبح منخفض من الحجر وفى تجويفه قليل

من الجسمرات وأيضا بقعنة السدم الداكن فى تجويفه
الأخير

كانت تعرف المعبد معرفة جيدة فهى التى شيدته على نفقتها
الخاصة وأحاطته بزعايتها لمدة سبعة أعوام . هناك وقف المعبد
بلونيه البنى والأبيض مثل زهرة فى البقعة الصغيرة المفتوحة
والخالية من الأشجار توارزه أشجار بلوط سوداء تقريبا لا
تغيب الخضرة عنه . وكان ظل بعد الظهيرة يغطى بالفعل قواعد
الأعمدة ..

ودخلت ببطء وهى تمر عبر الغرفة الداخلية العتمة التى يضيئها
لب مصباح زيت معطر . ومرة أخرى قامت المرأة بإغلاق الباب
كما أنها قامت مرة أخرى بإلقاء قليل من حبات البخور
على منقد النار أمام الإلهة ومرة أخرى جلست أمام إلهتها
فى الظلام الذى كاد يسوء كى تفكر وتنطلق بعيدا فى أحلام
الإلهة :

كانت إيريس ، لكنها ليست إيريس التى انجبت حوريس . كانت
إيريس التى قتلت بعلا .. إيريس الباحثة : ورفعت الإلهة فى
ممرها المطلق وجهها . ثم خطت وإحدى فخذيها تتقدم الفخذ
الأخرى ، وقد نذت عن فستانها هفهة واهنة وآلم فراقها عن
زوجها وانشغالها بالبحث عنه يعتصرها . كانت تبحث عن أشلاء

أوزيريس الممزقة الميتة والمتناثرة على هيئة قطع مبعثرة في كل أرجاء العالم الفسيح . وتعين عليها أن تعثر على يديه وقدميه وفخذه ورأسه وبطنه وأن تقوم بجمع هذه الأجزاء وتطوى ذراعيها حول الجسد بعد إعادة تجميعه حتى يدب فيه ثانية دفء الحياة فيستطيع احتضانها وإثمار رحمها . واستمر البحث بنشوته وألمه الغريب على مدى أعوام بينما رفعت حلقها ونظرت بعينيها الغائرتين بالداخل في نشوة معذبة ناجمة عن البحث وظهرت سُرتها الرقيقة تتوسط بطنها الذي تنفتح براعمه خلال فستانها الواهى الذى يحيط به حزام . ظهرت بسؤالها الأبدى والحاف بحثها فى الطلب . وخلال الأعوام عثرت على أشلائه قطعة قطعة . عثرت على القلب والرأس وجميع أطراف الجسم . ومع ذلك فهى لم تجد الحقيقة الأخيرة والحل النهائى الذى تستطيع عن طريقه الولوج إليه ... ذلك الحل الذى لا تستطيع بدونه أن تجعله يعود إليها لأنها كانت ايزيس زهرة اللوتس الرقيقة والناعمة . كانت الرنحم الذى ينتظرو مغمورا وعلى هيئة بوعمة تنتظر لسة تلك الشمس الأخرى الداخلية التى تفيض اشعتها من حقوى أوزيريس الذكر . . .

كان ذلك هو السر الذى قامت الكاهنة بمفردها بالحفاظ عليه لمدة سبعة أعوام منذ أن كانت فى العشرين من عمرها حتى الآن

عندما بلغت السابعة والعشرين . وفيما مضى عندما كانت صغيرة غاشت في أرجاء كثيرة من العالم : في روما وأفسوس ومصر . فقد كان والدها واحدا من ضباط أنطونيو ورفاقه ، وحارب مع أنطونيو ووقف بجانبه عند مقتل يوليوس قيصر وظل وفي أنطونيو حتى الأيام التي عرفت فيها العار . ثم عاد مرة أخرى عبر آسيا عندما غضبت عليه روما وانتهت حياته بمقتله في الجبال الواقعة وراء لبنان . وانسحبت أرملة لا تأمل في نيل الخطوة لدى أوكتافيوس وتعيش على ممتلكاتها على الساحل الواقع أسفل جبال لبنان أخذة معها ابنتها بعيدا عن العالم وهي فتاة جميلة وغير متزوجة في التاسعة عشرة من عمرها .

وفي شبابها تعرفت الفتاة بيوليوس قيصر فشعرت بالاحجام والانكماش أمام ضراوته الشبيهة بضراوة النسر . غير أن أنطونيو ذا الطلعة الذهبية جلس معها لمدة نصف ساعة مرات كثيرة وهو في روعة أطراف جسده العظيمة ورجولته المتوهجة ، وتحدث معها عن الفلسفات والآلهة لأنه كان من طفولته واقعا تحت سحر الآلهة بالرغم من سخريته منها وأنه نسيها في زهوه وغروره . ولكن أنطونيو قال لها :

«لقد ضحيت بيمامتين من أجلك ، وقدمتهما إلى فينوس إلهة الجمال لأنى أخشى أنك لا تقدمين أية ضحايا إلى هذه الآلهة الحلوة . وحذارى من الاسساءة إليها . تعالى وحدثيني عن السبب فى أن زهرتك تسرى فيها البرودة من الداخل إلى هذا الحد ؟ ألم يخترمها شعاع أو نظرة أبدا ؟ تعالى فالعذراء ينبغى أن تتفتح للشمس عندما تميل الشمس نحوها لتربت عليها وتلاطفها .»

وضحكت عينا أنطونيو الواسعتان واللامعتان وهو ينظر إليها ليجعلها تستحم فى توهجه . وشعرت بوهج جمال رجولته الأثير إلى القلب كما شعرت بحبه يغسل كل أطرافها وجسدها . ولكن الأمر كان كما قال ، فقد كانت زهرة رحمها تميل إلى البرودة، بل أنها كادت تكون باردة . ومن ثم تركها أنطونيو وشأنها لأنه كان يبجل والدها الذى أحبها .

. كان ذلك هو الحال دائما . فقد رأت رجالا كثيرين من الشباب والكهول . وبوجه عام أحبت الكهول أكثر مما أحبت الشبان لأنهم كانوا يتحدثون إليها باخلاص ودون أن يتحرك لهم ساكن ، وأيضا دون أن يتوقعوا منها أن تتفتح مثل زهرة تغمرها شمس رجولتهم . وذات مرة طرحت على فيلسوف السؤال التالى : «هل مكتوب على النساء أن يولدن كى يسلمن إلى الرجال ؟» فأجابها

الرجل العجوز : « نادرات هن النساء اللاتي ينتظرن مجئ الرجل
الذى ولد من جديد لأن زهرة اللوتس ، كما تعرف لا تستجيب لكل
حرارة الشمس الساطعة ، ولكنها تحنى رأسها الخبيء الداكن فى
الأعماق ولا يتحرك لها ساكن حتى تشرق فى الليل احدى
الشموس النادرة غير المرئية المقتولة والتي توقفت عن التوهج
والسطوع بين النجوم فى الأرجوان غير المنظور ، ومثل زهرة
البنفسج تبعث أشعتها الأرجوانية النادرة تبدد بها الظلمة .
وتستجيب زهرة اللوتس إلى هذه الأشعة وتندى عنها حركة شبيهة
بحركة المرء عندما يكون واقعا تحت تأثير التدليل وتنهض إلى
فوق خلال فيض الطوفان وترفع رأسها المحنى وتفرش
أوراقها وتنضح باتساع لا تعرفه أية زهرة أخرى وتنشر
أشعة بركتها الحادة وتقدم أعماقها الذهبية الناعمة التى ليس
لها مثيل فى أية زهرة أخرى كى يخرقها الفيض البنفسجى
الداكن للشمس التى ماتت . وبعثت دون ضجة أو عجيح . ولكن
زهرة اللوتس لا تتحرك أو تستجيب ، فضلا عن أنها لن تستجيب
أبدا لنهار شمس أنطونيو الذهبى . القصير التى تميل إلى
الاستعراض والزهو بنفسها . كما أنها لا تستجيب لشمس القوة
الشتوية القاسية المتمثلة فى يوليوس قيصر . هذه الشموس
فقط هى التى تفتح البراعم عنوة واقتدار . آه ! إني أقول لك .

انتظري من يولد من جديد وانتظري البرعم الساكن حتى يتحرك
ويتفتح .

وهكذا انتظرت لأن جميع الرجال كانوا إما رجالا أو ساسة
فى زمن الرومان يؤكدون ذواتهم ، وتظهر عليهم امارات
الرجولة والروعة ، فى حين أنهم كانوا يتسمون بخسة داخلية
ويعانون من النقص . وتركتها لحالها كل من روما ومصر على
حد سواء دون تهيجها أو استثارته . وحافظت المرأة على
أنوثتها فهى لا تقبل تسليم نفسها من أجل وهج ظاهرى أو
تتزوج لدواعى المنفعة بل سوف تنتظر حتى تبدأ زهرة اللوتس فى
التحرك فى أحشائها .

وبعدئذ عثرت المرأة على ايزيس فى مصر فباحث إليها
بسرها وأحضرت ايزيس إلى شواطئ صيدا وعاشت معها
تقتسمان سر البحث فى حين أن والدتها التى أحبت
تسيير أمور العالم تمتعت بحرية إدارة الضيعة الصغيرة
وشئون العبيد .

وعندما استفاقت المرأة من فكرها ونهضت كى تؤدى الطقس
الأخير نجو ايزيس ملأت المصباح بالزيت وتركت المحراب بعد أن
أوصدت الباب ، وكانت الشمس قد غربت بالفعل فى العالم

الخارجى وسرت برودة الشفق الشديدة بين همهمة الأشجار التى استمرت فى الهمهمة رغم انكسار حدة الريح .

ومن ركن سلالم المعبد ظهر رجل غريب يلبس قبعة عريضة داكنة اللون . كان ذا وجه قمحى ولحية مدبية سوداء . وقال للمرأة التى وقفت أعلاه فى وشاحها الأصفر على أحد سلالم الدرج - بجوار عمود مطلق باللونين البنين والأبيض : « أه يا سيدتى التى ابتهل إليها أن توفر لى مكانا احتمى فيه . » كان وجهها مستطيلا وشاحها بعض الشئ كما كان شعرها الأشقر فى لون الغروب مربوطا تحت شبكة رفيعة مصنوعة من الذهب . ونظرت من على إلى الرجل الشريد بعدم اكتراث . وكان نفس الرجل الذى سبق لها أن شاهدته وهو يراقب العبيد .

سأله : « لماذا نزلت من الطريق ؟ »

« رأيت العبد مثل زهرة شاحبة على الساحل فأردت أن استريح بين الأشجار الموجودة فى هذه الناحية إذا أذنت بذلك السيدة القائمة على خدمة الإلهة . »

قالت مجيبة عن سؤاله الأول : « إنها ايزيس الباحثة » .

فأجاب : « عظيمة هذه الإلهة » .

واستمرت فى النظر إليه بريبة وارتسمت ابتسامة واهنة ونائية فى عينيه السوداوين المتطلعتين إليها رغم أن وجهه

كان أجوف بسبب ما كابد من ألم . وخمن الرجل الشريد
تردها وسخر منها .

قالت له : « امكث هنا على الدرج حتى يأتى عبد ليقودك إلى
المكان الذى تلجأ إليه »

« إنه لانعام من سيدة مصر » .

ونزلت إلى الممر الصخري الموجود فى مرتفعات شبه الجزيرة .
وهى تلبس زوجا من الصنادل الموشاة بالذهب . كم كانت قدماها
البيضاوان كالعاج فاتنة وهما يظهران أسفل فستانها الأبيض .
وأحنت رأسها الأشقر كالغسق فوق وشاحها الأصفر كالزعران
كما لو كانت تستغرق فى تأملات لا تنتهى . كانت امرأة مستغرقة
وكأنها مشبوبة فى حلمها الخاص . وابتسم الرجل قليلا وهو
نصف ممرور وجلس مرة أخرى على الدرج لينتظر جازبا لفاحته
حوله فى برودة الشفق . وأخيرا ظهر عبد لابسا جلبابا
رماديا خشنا .

قال العبد بقلّة حياء : « هل تبحث عن الملجأ الخاص
بسيدتنا ؟ »

« لا مانع »

« إذن اتبعنى » .

وبقلة حياء فجائية يتميز بها العبد عندما يقوم على خدمة شريد
اقتاد الرجل الشاب من خلال الأشجار وأسفلها إلى قناة صرف
الماء صغيرة تشق الصخرة حيث توجد فى قلب الظلام شبه السائد
مغارة صغيرة تنتثر أمامها قمامة تتكون من نباتات شيطانية
طويلة فى الأرض متروكة كانت تنمو فى الأماكن المهجورة من
الساحل تحت الصنوبر . كان المكان معتما ولكنه ساكن سكونا
مطلقا وخال من صوت الريح . وكان المكان لا يزال يفوح برائحة
ماعز غير نفاذة .

قال العبد : «نم هنا لأن الماعز لم يعد يأتى إلى هذا المكان
الشبيه بنصف الجزيرة ، والماء موجود هنا !» قال هذا مشيرا إلى
الحوض الصخرى الصغير حيث اقترب نبات الخنشار الشبيه
بشعر عذراء من حافة ماء يتساقط بغزارة ملء الفم .

وانصرف العبد بعد أن أولى الرجل رعايته مظهرها احتقاره له .
ثم صعد الرجل الذى مات إلى حافة شبه الجزيرة حيث سمع
ارتطام الموج . وبدأ الظلام يهبط بسرعة كما بدأت النجوم فى
الظهور . وانكسرت حدة الريح فى الليل . وفى داخل الأرض ساد
الظلام المنحنى المجوف الشديد الانحدار فى اتجاه الشكل العام
للقمة المترددة قبالة السماء شبه الصافية . فقط من أن لآخر
تراقص لهب مصباح فى اتجاه الدار الفخيمة .

واتجه الرجل الذى مات إلى الملجأ حيث أخرج خبزا من جرابه
المصنوع من الجلد وغمسه فى ماء الينبوع الصغير وأخذ يأكل فى
بطء . وبعد أن انتهى من أكله وغسل فمه ألقى نظرة أخرى على
النجوم اللامعة فى السماء الصحوه التى تهب الريح منها . وبعدئذ
أعد أعشاب الأرض المهجورة كى تكون مخدعه . وبعد أن أزاح
قبعته وصندله جانبا واستخدم جرابه كوسادة تحت خده
استسلم للنوم لأنه كان مرهقا للغاية ، ولكن لسعة البرد أيقظته فى
إعياء خلال الليل فقد غلبه التعب والارهاق . وفى الخارج تلالأت
نجوم السماء واستمرت الريح فى الهبوب وجلس مقنفا من البرد
وأسلم نفسه لنوع من الخدر . وعند دنو الفجر رقد لينام مرة
أخرى .

وفى الصباح كان الساحل لايزال باردا فى منطقة الظل رغم
ارتفاع الشمس خلف التلال حين نزلت المرأة من الدار الفخيمة فى
اتجاه الإلهة . كان البحر جميلا وشاحبا فى زرقته وجميلا فى
جدته . وأخيرا سكنت الريح . ورغم هذا فقد تكسرت الأمواج فى
بياضها على عدة صخور قاذفة بالحصى الأملس المتناثر فى
الخليج الصغير . ثم سارت المرأة ببطء نحو حلمها ولكنها كانت
على وعى بوجود ما يقاطعها .

وبينما هى تتبع عنق الصخرة الصغيرة فى طريقها إلى شبه

الجزيرة صاعدة المخدر الكائن بين الأشجار والمؤدى إلى المعبد
نزل عبد ووقف منحنيا بخضوع وأدب . غير أن اتضاعه كانت
تشوبه لمسة من قلة الحياء . قالت له : « تكلم ! »

« سيدتى . إن الرجل موجود هناك ولا يزال نائما . هل تأذن لى
سيدتى بالكلام ؟ »

أجابت وهى تشعر بالنفور من العبد : « تكلم ! »

« الرجل يا سيدتى مجرم هارب ؟ »

وارتسمت أمارات الانتصار على العبد وهو يتفوه بهذه الأخبار
غير السارة .

سألته : « وما دليلك على هذا ؟ » .

« انظرى إلى يديه وقدميه ! لعل سيدتى تأتى لإلقاء نظرة
عليه » .

« خذنى إلى مكانه » .

وقادها العبد بسرعة فوق أعلى التل وهبط بها إلى هاوية
سحيقة صغيرة الحجم . وهناك انحنى العبد جانبا وذهبت المرأة
خلال فتحة فى اتجاه الكهف . وأخذ قلبها يدق قليلا . انه
يتعين عليها قبل كل شئ وفوق كل شئ أن تحتفظ بنقاوة المعبد
وطهارته .

كان الرجل الشريد يغط فى النوم واضعا خده على كيس نقوده
وتلفيحه حول جسده . ولكنه قام بلوى قدميه العاريتين المتسختين
احدهما بجانب الأخرى حتى تحتفظا بالدفع . وكان يقبض على
يده أثناء نومه . ورأت الجروح فى جلد قدميه الشاحب واللتين كان
حزام الصندل يغطيها فى العادة ، كما رأت ندوبا فى كف يده
الطليقة .

لم تكن تهتم بالرجال وخاصة الرجال المنتمين إلى الطبقة
السفلى الخانعة . ورغم ذلك نظرت إلى الوجه النائم . كان وجهها
أجوف متعبا يميل إلى القبح . ولكنها استطاعت بفضل كونها
كاهنة الحياة الأعمق . بل لاح ضرب من الجلال فى حاجبيه
السوداوين وفى خديه الأجوفين الساكنين . ورأت أن شعره الأسود
الذى تركه ينمو طويلا بخلاف عادة الرومان به لمسة من البياض
عند السوالم كما نمت بعض خيوط شعره الأبيض فى لحيته
السوداء المدببة . ولكن هذا البياض كان يرجع إلى ما كابده من
عذاب وسوء حظ . ولا غرو ، فقد كان الرجل فى عز شبابه . فضلا
عن أن جلده الذى اقترب لونه من لون الفسق كان لا يزال يحتفظ
بلمعة الشباب الفضية . وكان عذابه الأليم ينطق بالجمال كما
ارتسم الاخلاص الهادئ الغريب .. اخلاص الحياة البديعة الرائعة
على كل القبح الناعم الرقيق الذى يكسو وجهه . وللمرة الأولى

ارتجف كيان المرأة عند رؤية الرجل ، كما لو كانت قد لمسها طرف
لهب. العيش البديع. وهى المرة الأولى التى تحس فيها بذلك فقد
استثار الرجال فيها قبل ذلك كل أنواع المشاعر . ولكن أحدا لم
يلمسها أبدا بطرف الحياة الملهب .

رجعت أسفل الصخرة حيث كان العبد فى انتظارها . قالت :
«ليكن فى معلومك أنه ليس مجرما بل مواطنا حرا جاء من
الشرق . فلا تزعجه . ولكن احضره إلى عندما يصحو من نومه .
قل له إنى أريد الحديث معه» .

تكلمت فى برود لأنها وجدت أن العبيد على اختلافهم يتسمون
بشئ منفر بل مقرر إلى حد ما . فهم مطمورون فى الحياة السفلى
وشهيتهم ووعيتهم الصغير يدعوان بعض الشئ إلى الاشمتزاز .
ومن ثم ربطت حلمها حول نفسها ، وذهبت إلى المعبد حيث قامت
فتاة من العبيد باحضار ورود الشتاء والياسمين من أجل المذبح ،
ولكنها فى ذلك اليوم شعرت بالاضطراب حتى أثناء اعدادها
للطقوس .

وارتفعت الشمس متلألئة فوق التل وسقط ضوءها بفوز على
ساحل شبه الجزيرة الصغير الذى تغطيه أشجار الصنوبر كما

سقط الضوء على المعبد ذى اللون البنبى فى جدة تتسم بطهارة
البداوة .

وصحا الرجل الذى سبق أن مات من نومه ، وليس الصندل كما
لبس قبعته وعلق كيس نقوده تحت ملفحته . ثم خرج ليشاهد
الصباح فى كل رفته وفى كل لونه الذهبى الجديد . ونظر إلى زهرة
الرجس الصغيرة التى اختلط فيها اللون الأصفر باللون الأبيض
وهى تلمع وتتلاأ بين الصخور . ورأى العبد فى انتظاره وكأنه
خطر يتوعده .

قال العبد : «سيدى إن سيدتنا تود أن تتحدث إليك فى معبد
إيزيس» .

فقال الرجل الجائل : «حسنا» .

ومضى فى بطاء وتوقف لمشاهدة البحر الأزرق الشاحب وكأنه
زهرة يانعة هادئة لا يتحرك لها ساكن ، والحافات البيضاء
الموجودة بين الصخور مثل الزهور النامية فى الصخور البيضاء
والمنحدرات الجوفاء تنحرف عن مسارها وهى ترتفع من الشاطئ
يكسوها اللون الرمادى بسبب أشجار الزيتون والخضرة بسبب
لون القمح فى شبابه النضير حيث توجد الدار الفخيمة البيضاء
الصغيرة . كان كل شئ جميلا ونقيا فى صباح شهر يناير .

وسقطت الشمس على ركن المعبد وجلس على الدرج فى ضوء الشمس وهو ينتظر بصبر ليس له حدود . عاد إلى الحياة ولكنها ليست نفس الحياة التى تركها ، تلك الحياة التى يحياها صغار القوم وتكونها صغار الأيام التافهة . ولأنه ولد من جديد فقد كان فى الحياة الأخرى التى تشكل اليوم الأعظم من الوعى الإنسانى . وكان بمفرده وبمعزل عن اليوم التافه الصغير لا تربطه أية صلة بالناس العاديين ممن يراهم المرء كل يوم . لم يكن بعد قد قبل التحذير الذى لا رجعة فيه بألا يلمسه أحد . وهو التحذير الذى يفصل المولودين من جديد عن السوقه . وكان الانفصال مطلقا . وجاء إلى المعبد فشعر بالسلام يغمره .. ذلك السلام الوثنى القوى الوضاء مع عداوة العبيد أسفل المكان .

دلفت المرأة من خلال باب المعبد الداخلى المعتم آتية من المحراب .. ووقفت هناك مترددة ، استطاعت أن ترى هيئة الرجل ذى البشرة القمحية وهو جالس فى صمت مروّع كان فى نظرها بمثابة نذير بالشر . وهو صمت يتسم فى صبره بشئ يكاد يمثل تهديدا لها .

وتقدمت نحو غرفة المعبد الخارجية . وشعر الرجل بقدموها فنهض واقفا . وخاطبته باللغة اليونانية فقال لها :

«إن معرفتي باللغة اليونانية محدودة يا سيدتي . اسمحي لي
بالتحدث بالسوريانية» .

سألته بلهجة متعجلة تناسب انشغالها بوصفها كاهنة :

من أين جنت ؟ وإلى أين تذهب ؟

أجاب ببطء : «جئت من الشرق فيما وراء دمشق الشام .
وسأذهب إلى الغرب حيثما استطعت إلى ذلك سبيلا» .

ونظرت إليه بحياء وقلق مفاجئ . وسألته فجأة دون أية
مقدمات : «ولكن لماذا تحمل أمارات المجرمين ؟»

سألها وهو جد منهك : «هل كانت كاهنة الإلهة ايزيس تتلصص
على أثناء نومي ؟»

قالت : «العبد هو الذي حذرني ولفت انتباهي إلى يدك
وقدميك» .

تطلع إليها ثم قال :

«هل تسمح لي كاهنة الإلهة ايزيس أن أودعها ثم أمضي لحال
سبيلي؟»

وهبت ريح مفاجئة فرفعت لفاحته وقبعته فوضع يده
ليمسك بطرفيهما فرأت مرة أخرى الجرح على يده البنية
النحيلة .

قالت مشيرة إلى الجرح : «أنظر. هو ذا الجرح !»
قال : «ومع هذا فيانى أودعك وأقدم فروض الطاعة والولاء
لايزيس . وشكرا لأنك سمحت لى بالنوم» .
كان على أهبة الانصراف . ولكنها تطلعت إليه بعينين زرقاوين
مدهشتين .

قالت باندفاع مفاجئ : «ألا تود أن ترى إيزيس ؟»
عندئذ تحرك داخله شئ شبيه بالألم.

قال : «أين هى ؟»

قالت : «تعال !»

وتبعها إلى المحراب الداخلى فى الظلمة التى تكاد تسود .
وعندما ألفت عيناه وهج المصباح الواهن رأى الإلهة تسير بخطى
واسعة كأنها سفينة وتشعر باللهفة أثناء دوران حركة ردائها.
وانحنى أمامها تأدبا واجلالا . وقال : «ما أعظم إيزيس فهى فى
بحثها أعظم من الموت . ورائعة هى مشيتها كامرأة ومدهش هو
هدفها . فجميع الرجال يقرظونك يا ايزيس فانت فى نظرهم أعظم
من الأم .»

وسمعت كاهنة ايزيس هذه الكلمات ، وألقت البخور فى منقذ
النار ثم نظرت إلى الرجل وسألته :

«هل أنت على ما يرام هنا ؟ وهل أحضرتك ايزيس إلى الدار
كى تكون لها.»

تطلع إلى الكاهنة بدهشة وانزعاج .

قال : «لست أدري» .

ولكن المرأة كانت تفكر أن هذا الرجل هو أوزيريس
المفقود . تحركت الخلجات فى أعماق روحها . وكان
اضطرابها شديدا . ولم يرغب فى البقاء داخل المحراب الضيق
المعطر الذى يسوده الظلام . وخرج مرة أخرى ليواجه الصباح
والهواء البارد ، وشعر باقتراب شئ منه كى يلمسه . وكان كل
جسده نسيجا من الألم والنهى بآلا يلمسه أحد . نعم بآلا
يلمسه أحد .

واتجهت المرأة إلى المكان المكشوف بشغف خائف : أما هو فقد
انصرف بعيدا :

«آه . لا تذهب أيها الغريب . آه ، أمكث قليلا مع ايزيس !»
ونظر إليها .. إلى وجهها المتفتح كالزهرة كما لو كانت الشمس
قد اشرقت فى روحها . ومرة أخرى تحرك حقواه .

سألها : «هل ستؤخريننى يا ابنة ايزيس ؟»

أجابت : «أمكث ! فأنا على يقين من أنك أوزيريس !»

وضحك فجأة قائلاً : « ليس بعد » . عندئذ نظر إلى وجهها
المحزون ثم أردف بقوله : « ولكنى سأنام ليلة أخرى فى كهف الماعز
إذا شاعت إيزيس هذا » .

وضمت كلتا يديه تغمرها السعادة الطفولية الخليقة بأن تشعر
بها الكاهنة .

قالت : « أه سوف تغمر السعادة إيزيس ! »

ولهذا هبط إلى الشاطئ فى انزعاج قائلاً لنفسه :

« هل أسلم نفسى لهذه اللمسة .. هل أسلم نفسى لهذه
اللمسة . لقد قام البشر بتعذيبى حتى الموت بلمساتهم : ورغم
هذا فإن كاهنة إيزيس هى شعلة الشفاء الرقيقة . اننى طبيب ومع
ذلك فإنى لا أملك القدرة على الشفاء مثل الشعلة التى تملكها هذه
الفتاة الرقيقة . فيالها من شعلة تلك التى تحظى بها هذه الفتاة
الرقيقة ! هى مثل نبات الكركم الشاحب الذى ينمو فى الربيع .
كيف كنت لا أبصر هذا الشفاء أو نعمة جسد هذه المرأة الرقيقة
الشبية بزهرة الكركم . يا لها من رقة . إنها أفضع وأجمل من
الميتة التى متها .. »

ثم اصطاد من الصخور سمكا ذا أصداف واستمتع بأكله .
وتعجب من مذاق البحر البسيط . كان يهتز فرقا بداخله
وهو يفكر :

«هل أجرؤ على لمس هذه المرأة ؟ إن هذا أكثر بعداً من الموت .
لقد جسرت على أن أتركهم يلقون القبض على ويصدرون على
حكما بالموت . ولكن هل أجرؤ على ملمس الحياة الرقيقة ؟ آه ! إن
هذا أكثر صعوبة ..»

ولكن المرأة دخلت المحراب مرة أخرى وجلست مستغرقة
فى تأملاتها الخالصة خلال الساعات الطوال وهى تراقب
خطى الالهة التى تتحرق شوقا منحرفة عن مسارها وسرة
بطنها الشبيهة بالبرعمة تشبه خاتم على حثيث البحث
البكر ، وأسلمت نفسها إلى فيض الأنوثة وتحريض إيزيس
الباحثة . .

وقرب غروب الشمس ذهبت إلى شبه الجزيرة لتبحث عنه
فوجدت أنه قد ذهب ناحية الشمس مثلما فعلت هى فى
اليوم السابق جالسا على أنصال الصنوبر الموجودة أسفل
الشجرة حيث كانت تقف عندما رآته لأول مرة . واقتربت الآن
ببطء وهى تهتز خوفا من أن يكون غير راغب فيها . ووقفت
بجواره وهى مختفية عن الأنظار حتى رفع رأسه ليراها فجأة
من تحت قبعته العريضة ورأى الشمس المتجهة إلى الغرب
على شعرها المعقود . ورغم أنه ارتج عليه بسبب مراها فإنه
كان يتوقعها .

قال مشيراً إلى الدار الفخيمة القصيرة البيضاء على منحدر
أشجار الزيتون:

«هل هذا بيتك؟»

«هو بيت أُمى . هى أرملة وأنا ابنتها الوحيدة».

«وهل كل هؤلاء عبيدها؟».

«فيما عدا من أملك من عبيد».

وتقابلت عيونهما للحظة . سألها :

«هل تجلسين أيضاً لرؤية غروب الشمس؟».

لم ينهض كى يتحدث إليها . فقد كابد من الألم أكثر مما
ينبغي. وهكذا جلست على أنصال الصنوبر الجافة ذات اللون
البنى . وضمت وشاحها الذى كان فى صفرة الزعفران حول
ركبتيها . وخرج قارب من الوهج المكشوف ليدخل الخليج الذى
تكسوه الظلال . كان العبيد يرفعون شباكهم الصغيرة وصوت
لغوهم يطفو على سطح الماء.

قال: «هل الدار الفخيمة بمثابة بيت لك؟».

ردت بقولها : « ولكنى أقوم على خدمتها فى بحثها .»

ونظر إليها ، كانت مثل سحابة رقيقة مستغرقة فى الفكر ونائية

بعض الشيء. ولسعته روحه بمشبوب عواطفها وتعاطفها.

قال لها بجدية مفاجئة : «لعلك تجدين رغبتك أيتها العذراء».

سألته : «أأست أوزوريس ؟» . احمرت وجنتاه . أجاب:

«نعم إذا سمحت لى بالشفاء! فمازلت أعانى من انعزالى بسبب موتى، ولا سبيل للفكاك من ذلك.»

نظرت إليه برهة فى خوف من شمس عينيها الزرقاوين
الناعمتين. وبعدئذ خفضت رأسها . وجلس الاثنان فى صمت
يتمتعان بدفء الشمس الفاربة ووهجها . جلس كلاهما ،
الرجل الذى سبق له أن مات والمرأة المنصرفة إلى البحث
الخالص .

كانت الشمس تميل إلى أسفل فى اتجاه البحر فى روعة الشتاء
العظيم . سقطت أشعة الشمس على أجساد العبيد العارية
الوضاءة بأفخاذهم العريضة الوردية ورعوسهم السوداء الصغيرة
وهم يجرون لنشر شباكهم على الشاطئ المغطى بالحصى . كان
إله الرعاة الذى يفيض قلبه بكل التسامح يراقبهم . إن إله الرعاة
المفعم بالتسامح ينبغى أن يظل إلههم إلى الأبد .

ونفضت المرأة عندما غاصت حافة الشمس فى الماء قائلة:

«إذا مكثت فسوف أرسل لك زادا وغطاء .»

«وماذا ستقول السيدة أملك؟»

وألقت عليه كاهنة إيزيس نظرة غريبة تشوبها مسحة من الشك.

قالت : «هذا ملك لى.»

ابتسم ابتسامة واهنة وهو يستشرف الصعاب. قال :

«هذا حسن.»

وراقبها وهى تذهب فى حركة غريبة مشغولة البال كالتى تميز من يفكرون فى أنفسهم فقط . خفضت رأسها البنى اللون قليلا وقد التف الكتان الأبيض حول كعبيها اللذين كانا فى لون العاج . ورأى العبيد العرايا وهم يقفون كى ينظروا إليها بقدر من الاندهاش بل بقدر من الشقاوة الشريرة المضمرة . ولكنها مرت مشغولة الفكر خلال الباب فى الحائط المقام على الخليج.

وجلس الرجل الذى سبق أن مات أسفل الشجرة المطلة على الشط لأن كل شىء كان يحدث على الشط الصغير . وكانت الإماء لا يزلن يغسلن الكتان عند ينبوع الماء الصغير الذى يجرى حول ركن حائط العقار ، بينما جاء بين الفينة والفينة صوت ارتطام أجوف نتيجة خبط الغسيل على الأحجار الملساء فى تجويف البركة الصغير المظلم . وانتشرت فى الجو رائحة نفايات الزيتون . وأحيانا جاء خافتا ضجيج الرحى وهى تطحن الزيتون داخل البستان ، وكذلك صوت العبد مناديا على الأتان كى تحضر إلى

الطاحونة . وبعدئذ دلفت امرأة من مدخل الباب بيضاء الشعر
ولابسة وشاحا من الصوف المائل إلى البياض ، وتبعها رجل
رومانى عارى الرأس ويرتدى الشملة الرومانية . وكان هذا
الرجل على الأرجح تابعاً لها أو المشرف على شئونها . ووقف
الرجل والمرأة فى بقعة يغطيها الحصى الأملس أعلى سطح البحر
وألقى حوله نظرة سريعة . وأحنى العبيد ذؤو البشرة الحمراء
والعجز العريض رعوسهم أذلاء خائعين ومستغرقين فى التفكير
فوق الشباك التى كانت نظيفة عندما قاموا برفعها . والنسوة
اللائى يغسلن الكتان يدفعن بكفوفهن بهمة ونشاط فى الغسيل .
وأحنى الرجل العجوز رأسه - وهو يستغرق فى التفكير على
حافة الماء - يغسل ما اصطاد من أسماك وحيوانات مائية .
وشاهدا أيضاً الرجل الغريب صامتا وبمفرده جالسا أسفل
الشجرة على صخور شبه الجزيرة . ولاحظ الرجل الذى
سبق له أن مات انهم يتحدثون عنه . ونظر من عالم شبه الجزيرة
المقدس الصغير إلى العالم العادى الذى رأى أنه لا يزال يناصبه
العداء.

كانت الشمس تلمس البحر وامتد عبر الخليج الصغير ظل
الأرض المرتفعة ذات السنم الموجودة فى الناحية المقابلة . وخطت
المرأة العجوز بتثاقل على حصى البحر الأملس الذى صار الآن

أزرق وباردا فى الظل ، وحتى ترى فى الظل أيضاً السمك
المفروش فى سلة الرجل العجوز المسطحة وهو يجرمز على حافة
الماء . كان عبدا عجوزا عارى الجسد ذا أرداف واكتاف ممثلة وقد
تلاأت قبل اختفائها الشمس الغاربة على جسده البرتقالى الناعم
الذى ترتسم عليه مسحة من الجمال . وظل العبد العجوز ينظف
السمك وهو مشغول البال دون أن يتطلع إلى أعلى ، كما لو كانت
السيدة هى ظلال الغسق الساقطة عليه.

ثم خرجت فتاتان أمتان من البوابة تحملان سلتين مسطحتين
على رأسيهما وبرز فى إحدى السلتين إناء الخمر وإناء الزيت
المصنوعين من الفخار وهما مائلان ميلا خفيفا . وفوق حصى
البحر الكثيف تحت الحائط جاءت الفتاتان كما جاءت كاهنة ايزيس
فى وشاحها الزعفرانى لتسير فى الغسق خلفهما . كانت الشمس
لاتزال تسطع على سطح البحر فى حين سادت الظلال هنا فى هذا
المكان . ووقفت الأم التى وخط المشيب شعر رأسها على حافة
البحر لتراقب ابنتها التى كسا اللونان الأصفر والأبيض كل
جسمها، والتى ساوت رأسها الأشقر الأربد وهى تتمايل دون أن
تبصر أو تلتفت خلف الفتاتين الأمتين فى اتجاه عنق الصخرة فى
شبه الجزيرة . وكانت الابنة تمشى مستغرقة فى الفكر وكأنها فى
عالم آخر . ودون أن تتحرك من مكانها أخذت الأم المتقدمة فى

السن تراقب موكبا من ثلاثة أشخاص وقد اصطفوا على قمة الأرض العالية بين الأشجار . ثم اختفى الموكب وقد حجبته الأشجار . ولم يرفع أى من العبيد رأسه لينظر . ثم استمرت المرأة ذات الشعر الأبيض فى مراقبة الأشجار حيث اختفت ابنتها . ونظرت مرة أخرى إلى أسفل الشجرة حيث كان الرجل الذى سبق أن مات لا يزال جالسا غير مرئى الآن بسبب اختفاء أشعة الشمس الساقطة عليه . ولم يلمع سوى نصل البحر النائى فقط . وكان الوقت مساء . فليتذرع بالصبر وليأخذ القدر مجراه .

سارت الأم بخطى وثيدة نحو حصى البحر الأملس . لم تكن خطواتها طويلة ومتأرجحة ومستغرقة فى الفكر مثل ابنتها . ولكنها مشت بخطى قصيرة ، عاقدة العزم والتصميم . ثم هبط من فوق الصخور من الناحية المقابلة عبدان عاريان يعدوان وهما يحملان على اكتافهما ربطا ضخمة من الزرع الأخضر الداكن ، لدرجة أن أرجلهما العريضة العالية تلامت تحت جسديهما مثلما تتلأأ أرجل الحشرات ، كما اختفى رأساهما عن الأنظار . جاء يعدوان عبر الحصى الأملس لا يلتفتان إلى شئ ولا يلويان على شئ ، عندما وجه فجأة المشرف ذو المنظر الرومانى خطابه إليهما . فتوقفا فى مكانيهما مسمرين ، ووقفا غير مرئيين تحت رأسيهما المثقلين

بالأحمال، كما لو كانا سيختفيان عن الأنظار تماماً . ولكنهما الآن
تسمرا فى مكانهما ، عندئذ امتدت يد مشيرة إلى شبه الجزيرة ...
وبعد ذلك استمر العبدان المحملان بالخضرة فى العدو .. نحو
أطراف المعبد وانضمت المرأة ذات الشعر الأشيب إلى الرجل .
وببطء اجتاز الاثنان الباب مرة أخرى وسارا فى البقعة المغطاة
بحصى البحر الأملس إلى مكان الدار الفخيمة . ثم نهض العبد
العجوز ذو الكتفين الممتلئتين وقد شحِب شكله فى الظل حاملا
صينية السمك المصطاد من البحر . ونهضت المرأة من البركة
بحيوية ولونها كالفسق وهى تجمع الكتان المبلل فى كومة فوق
السلال المسطحة . وقام العبيد الذين نظفوا الشبكة التى تميل
طياتها إلى البياض بجمعها ولها . ثم اجتمع بالقرب من الباب
وهم عرايا كل من العبد العجوز الذى يحمل سلة السمك على كتفه
والإماء اللائى يحملن السلال المليئة بالكتان المبلول فوق رؤوسهن
والعبدین بشبكتهما المطوية والعبد الذى يحمل المجاديف على كتفه
والغلام الذى يحمل القلع على ذراعه . وسمع الرجل الذى سبق أن
مات أزيز لغوهم الخفيض . وعندما هبت نسمة ریح باردة بدأوا
يدلفون داخل الباب .

كانت الحياة حياة اليوم العادى التافه وحياة التافهين من
الناس.

وقال الرجل الذى سبق أن مات لنفسه : «مادمتا لا نحيط
الحياة العادية بحياة اليوم الأعظم ومادمتا لا نضعها فى دائرة
الحياة الأعظم فإن كل شىء سوف ينتهى بكارثة ».

حتى قمم التلال كانت فى الظل . السماء وحدها هى التى
تلاأت إلى فوق . وكان البحر كىالظل الهائل فى لون الحليب .
ووقف الرجل الذى سبق أن مات وقفة جامدة بعض الشىء . ودخل
الخميلة . لم يكن هناك أحد فى المعبد . مضى إلى جحره فى
الصخرة . وهنا كان العبيد قد قاموا بنقل العشب الشيطانى
القديم المستخدم كفراش للمواشى إلى الخارج وبكنس أرضية
المعبد الصخرية . وكانوا يفرشون الرياحين بذوق جميل ثم بعدها
الأعشاب الشيطانية الأكثر خشونة ثم يضعون أعلى ذلك أطراف
الأعشاب الشيطانية كفراش . وفوق كل هذا وضعوا جلد ثور
أبيض مدبوغا . وكانت العذارى قد وضعت أغطية صوفية مطوية
على رأس المغارة . واصطف فى نظام وترتيب دقيق اناء الخمر
واناء الزيت وفنجان من الفخار وسلّة تحتوى على الخبز والملح
والجبين والتين المجفف والبيض . وكان هناك منقد نار صغير فيه
فحم خشبى . وفجأة امتلأت المغارة بالأشياء وتحولت إلى مكان
يصلح للسكنى.

وقفت كاهنة إيزيس فى الفجوة القريبة من ينبوع الصغير .
كان المكان يسمح بدخول عبد واحد فى المرة الواحدة .
وانتظرت الفتيات الإماء عند مدخل المكان الضيق . وعندما ظهر
الرجل الذى سبق أن مات أمرت الكاهنة الفتيات بالانصراف .
واستمر العبيد الذكور فى ترتيب الفراش وهم يتكأون فى إنهاء
عملهم بقدر ما يستطيعون . ولكن كاهنة إيزيس أمرتهم
بالانصراف أيضاً . وجاء الرجل الذى سبق أن مات ليلقى نظرة
على بيته .

سألته المرأة : «هل يروق لك؟»

أجاب الرجل : «يروقنى كثيرا . ولكن السيدة والدتك، ومن يقوم،
بلا شك على خدمتها كانوا يراقبون العبيد وهم يحضرون الأشياء
والحاجيات .. ألن يعترضوا على ما تفعلين؟»

«إنى أملك جزءا خاصا بى ! أوليس من حقى أن أمنح مما
أملك؟ من الذى سيعارضنى ويعارض الآلهة؟» . قالت هذا بقدر من
الغضب الناعم المشوب بالضيق، الأمر الذى ينم عن أن أمها سوف
تعترض عليها وأن روح اليوم العادى والتافه سوف تحارب ضد
روح اليوم الأعظم . وفكر : «لماذا تخلت كاهنة إيزيس عن نصيبها
فى الحياة اليومية العادية ؟ كان عليها الاحتفاظ بممتلكاتها فى
شراسة».

قالت : «ألا تأكل أو تشرب؟ هناك بيض دافىء على الرماد .
وسوف أصعد إلى الدار لتناول الطعام . ولكنى سوف
أهبط إلى المعبد فى الهزيع الثانى من الليل . آه هل ستجىء
أيضاً إلى ايزيس؟» ونظرت إليه وارتسم عليها وهج غريب
بسبب اتساع حدقتيها . كان ذلك حلمها . وكان ذلك أعظم من
نفسها . لم يكن بمقدوره الآن أن يتحمل أن يعارضها أو يؤذى
مشاعرها فى أقل شىء . فقد كانت فى ذروة وهج سرها
الأنثوى .

قال : «هل انتظر عند المعبد؟»

«آه . انتظر فى الهزيع الثانى من الليل وسوف أحضر إليك».

سمع هممة الابتهاال فى صوتها فاهتزت كل خلجاته.

نظرت إليه المرأة فزعة . وقالت :

«إنها لن تعارضنى !» .

وهكذا أدرك أن الأم سوف تعارض ابنتها لأن الابنة
تركت ممتلكاتها فى يدى أمها التى لن تتنازل عن قوتها
وسلطانها.

ولكنها انصرفت . ورقد الرجل الذى سبق أن مات مستندا إلى
المخدة وأكل البيض من فوق الرماد وغمس خبزته فى الزيت وأكله

لأن جسده كان جافاً . ومزج الخمر بالماء وشربها . ثم رقد ساكنا
بينما المصباح صنع برعما صغيرا من الضوء .

كان مستغرقا فى أحاسيس جديدة وأسيرا لها . وبدأت
كاهنة ايزيس جميلة فى عينيه . ولم يكن جمالها فى شكلها
بقدر ما كان فى وهجها الأثنوى المدهش . وغمرتها الشموس
تلو الشموس فى النار الغامضة ... نار المرأة العفوية
الغامضة .. كان ملمسها مثل ملمس الشمس وكانت أفضل
الأشياء جميعها .

رغبتها الرقيقة فيه مثل سطوع الشمس الذى يجمع بين النعومة
والسكون .

قال لنفسه وهو يمد أطرافه : «انها مثل وهج الشمس الغامرة .
إننى لم أمد أطرافى قبل ذلك أبداً فى سطوع مثل هذه الشمس
المائلة فى رغبتها فىّ ، إن أعظم الآلهة هى التى منحتنى هذا.»
وفى الوقت نفسه لم يبارحه الخوف من العالم الخارجى . قال
لنفسه :

«إذا استطاعوا فسوف يجهزون علينا . ولكن هناك قانونا
للشمس يوفر لنا الحماية.»

وقال لنفسه مرة أخرى : «لقد نهضت عاريا وموصوما .
ولكنى إذا كنت عاريا مافيه الكفاية من أجل هذا الالتصاق

فإن موتى لن يضيع سدى . لقد كنت قبل ذلك أرسف فى الأغلال».

نهض وخرج ، وكانت لسعة البرد شديدة فى الليل الذى تلالأت فيه النجوم والذى تحلى بروعة شتوية عظيمة . وقال مخاطباً الليل:
«هناك مصائر وأقدار للروعة بعد أن كتبت علينا التفاهة والوضاعة والألم .»

وهكذا مضت فى صمت إلى المعبد . وانتظرت فى الظلام مقابل الحائط الداخلى شاخصة بعينيها إلى الظلام الرمادى والنجوم وحواف الأشجار . وقال مرة أخرى لنفسه :

«هناك للروعة أقدار ومصائر . وهناك قوة أعظم.»

ورأى الضوء الأخير فى مصباحها الملفوف بالحرائر يتراقص أتيا بانقطاع، ولكن بسرعة خلال الأشجار . كانت بمفردها . وبالقرب منها سقط النور بنعومة على طرف وشاحها وارتعد بخوف وفرح قائلاً لنفسه : «إننى أكاد أخاف من هذه اللمسة أكثر من خوفى من الموت . لأننى أشعر وأنا أتعرض لها بقدر أكبر من العرى.»

قال لها برقة فى الظلام : «انى هنا ياكاهنة ايزيس».

وأيضاً صرخت فى خوف . ولكن بانتشاء لأنها استسلمت
لحلمها . «آه» .

وفتحت مزلاج باب المحراب وتبعها ثم أوصدت مزلاج الباب مرة
أخرى . كان الهواء بالداخل دافئاً ومكتوماً ومعطراً . ووقف الرجل
الذى سبق أن مات بالقرب من الباب المغلق وراقب المرأة . جاءت
فى بداية الأمر إلى الإلهة . ووقف تمثال الإلهة فى ضوء خافت
يتدفق ويندفع إلى الأمام وهو يبعث على قليل من الخوف مثل
حضرة امرأة عظيمة تحت وتحرض .

ولم تنظر الكاهنة إليه وخلعت وشاحها البرتقالى ووضعتة على
المضجع الواطئ . كانت فى الضوء الخافت عارية الذراعين فى
ردائها الأبيض المربوط بالحزام . ولكنها كانت لاتزال تخبىء بعيداً
عنه . ووقف فى الظل وراقبها وهى تنفخ برقة فى منقد النار وتنثر
البخور عليه لتصعد فى الهواء سحباً واهنة من الأريج الحلو .
والتفتت إلى التمثال وهى تقترب منه بطريقة من يمارس طقساً
وهى تتمايل برقة إلى الامام وتهتز مثل قارب مربوط فى مرساه
نحو الإلهة .

راقب المرأة الغريبة المستغرقة فى أفكارها ، وقال لنفسه :
«يجب على أن أتركها وحدها فى انتشائها وأسرارها الانثوية» .
ثم مالت فى إيقاعها الغريب المهتز إلى الامام قدام الإلهة . ثم

أخذت تهمهم باللغة اليونانية التى لم يتمكن من فهمها . وبينما هى تهمهم أخذ اهتزازها يقل بنعومة مثل قارب فى بحر بدأ السكون يسوده . وأثناء مراقبته رأى روحها فى انفرادها كما رأى اختلافها الأنثوى . قال لنفسه :

«كم هى مختلفة عنى . كم هى مختلفة بشكل غريب . لقد أخذت تصوير خالية من الخوف وعارية عنه . كم هى نابضة بالحياة على نحو حساس ورقيق . ولكم تختلف حياتها ! وكم هى فاتنة بما لديها من شجاعة الموت ! كم هى جميلة مثل قلب وردة وكأنها قلب لهب. إنها تعرض نفسها تماماً للاختراق . وكم هو فظيع أن يخيب المرء أملها أو أن يدوس لها على طرف!»

التفتت إليه ووجهها يستمد توهجه من الإلهة.

سألت بسذاجة : «أنت أوزوريس . أليس كذلك؟».

قال : «أنا هو إذا شئت».

«هل تسمح لإيزيس باكتشافك؟ وهل تخلع ثيابك؟»

ونظر إلى المرأة فاقدًا قدرته على التنفس . وبدأت جراحه ، وخاصة الجرح المميت فى بطنه ، تؤلمه من جديد.

قال : «لقد أملتني كثيرا . يجب عليك أن تغفرى لى إذا كنت لا

أزال هيابا محجما.»

ولكنه خلع عباعته وثيابه واتجه عريانا نحو التمثال وصدره
يتهدج نتيجة الرعب المفاجيء الذى سببه له الألم المروع
الكاسح ، وذكرى هذا الألم المروع الكاسح والحزن الذى لا حد
لمرارته.

قال كمن يعتذر عن نفسه لافتا وجهه إليها لحظة: «انهم طعنونى
حتى الموت».

ورأت فيه شبح الموت أثناء وقوفه أمامها نحىلا وعاريا .
وفجأة أصابها الفزع وخامرها احساس من يتعرض للنهب
والسرقة. وشعرت فى انتصار بطيف جناح الموت الرمادى
المسروع . قالت للتمثال باللغة البدراجة : «آه ياإلهتى . سوف
تغمرنى سعادة العيش إذا قمت بإعطائى إشارة البدء من
جديد».

وشعر باليأس مرة أخرى من أجلها، وقد واجهته مطالب الحياة.
وهو لايزال يشعر بوطأة موته ثقيلة عليه.

قالت له المرأة فى رقة : «دعنى اكرسك بالزيت. ودعنى أمسح
الندوب بك ! ارنى إياها وسوف أقوم بتكريسها بالزيت!»

ونسى أنه عريان بسبب استعادته للألم القديم . ثم دعت يده
فتداعت فى ذهنه الذكريات من جديد . تذكر المسامير ... مكان
الطعنات .. القسوة ... القسوة الظالمة التى لحقت به وهو لم يقدم

غير الحب والحنان .. وانتابه ألم الظلم والقسوة من جديد مثلما شعر بهما ساعة موته . ولكنها دعت كف يده وهى تهمهم : «الذى تمزق يصبح جسدا جديدا . والذى كان جرحا يمتلىء بحياة جديدة . وهذا الندب هو عين البنفسج».

لم يكن بوسعه غير الابتسام لها فى استغراقها الساذج فى عملها ككاهنة كان ذلك حلم حياتها . وكان وحده موضوع أحلامها . لن تعرف أو تفهم أبداً ماهيته . وعلى وجه الخصوص لم تكن لتعرف أبداً الموت الذى انقضى وولى فيه قبل ذلك . ولكن ما أهمية ذلك؟ فقد كانت مختلفة ، وكانت امرأة كما كانت حياتها وموتها يختلفان عن حياته وموته . فقط كانت حانية عليه وطيبة فى تعاملها معه .

وعندما دعت قدميه بالزيت وبالشفاء الرقيق للغاية لم يكن باستطاعته أن يمنع نفسه من أن يقول لها :

«فى يوم من الأيام غسلت امرأة قدمى بالدموع ومسحتهما بشعرها ، وسكنت على طيبا غالى الثمن .»

ورفعت كاهنة ايزيس عينيها من عملها الجاد وتطلعت إليه مقاطعة مرة أخرى : «وهل كانت قدماك مصابتين بأى ضرر؟»

« لا . لا . حدث هذا عندما كانت قدمائى سليمتين».

«وهل أحببتها؟»

أجاب : «لقد مات الحب فى قلبها : إنها أرادت فقط أن تؤدى خدمة . كانت هذه المرأة عاهرة» .

سأله : «هل سمحت لها أن تخدمك؟»

«نعم» .

«هل سمحت لها أن تخدمك وقد مات حبها وأصبح جثة هامدة؟»

«نعم» .

وفجأة خطرت على باله هذه الفكرة : «لقد طلبت منهن جميعاً أن يقمن على خدمتى بعد أن تحول حبهن إلى جثة هامدة . وفى النهاية قدمت إليهن فقط جثة حبي الهامدة ... هذا هو جسدى فخذى ، وهذه جثتى فكلى »

واخترمه شعور نابض بالخجل وفكر : «إننى فى نهاية الأمر أردت منهن أن يحبن بأجسام ميتة . ولو انى طبعت قبلة على يهوذا بحب حى فربما كان لا يقبلنى قبلة الموت على الاطلاق . من الجائز أنه أحبنى فى الجسد فى حين أردت منه أن يحبنى بدون جسد وبجثة الحب.»

وفجأة تراءت له حقيقة الحب الدافئ الناعم القائم على اللمس والمفعم بالمباهج .

قال لنفسه : «وأخبرتهم طوبى للذين ينصبون وينوحون .
يالأسى! إذا كنت نعت حتى هذه المرأة الموجودة هنا وأنا الآن فى
الموت فينبغى على أن أبقى ميتا . غير أنى أرغب فى الحياة إلى
أقصى حد . إن لمستها أصبحت فى نظرى الآن تفوق كل كلماتى .
فأنا أريد أن أعيش.»

قالت بصوت ناعم وهى تدفعه تجاه إيزيس : «إذن اذهب إلى
هذه الإلهة!» وبينما وقف مشدوها وعريانا كشيء لم يولد بعد سمع
صوت المرأة تتمتم للإلهة ، تتمتم بمناشدة شاكية . انحنى الآن
ناظرة إلى أثر الجرح فى الجسد الطرى فى تجويف جنبه . وبدا
الندب عميقا (مثل عين احمرت من كثرة البكاء الذى لا يعرف
الانقطاع قط) فى التجويف الناعم فوق العجز . فمن هنا سال دمه
وتركته بذرته الجوهرية . كانت المرأة ترتعد برقة وتتمم باللغة
اليونانية . وفى يأسه المتكرر الناجم عن موته وفى حيرته التى
تفيض بالألم الناجمة عن سعيه إلى إرغام الحياة شعر بجروحه
تؤلمه بشدة وبالأماكن العميقة فى جسده تصرخ مرة أخرى وهى
تقول : «لقد قتلونى وساعدتهم على قتلى. لقد قتلونى وساعدتهم
بنفسى على الاجهاز على».

والآن فى صمت وضعت المرأة، وفرائصها ترتعد ، الزيت فى
يدها . ووضعت كفها على الجرح الموجود فى جنبه الأيمن، فانقبض

وانكمش من الألم . وانشغل باله بالجرح مرة أخرى مثلما حدث له
آلاف المرات من قبل . ومن الألم المظلم الوحشى والذعر الذى
أصاب وعيه ارتفعت صرخة واحدة تقول : «كيف يمكنها أن تنزع
هذا الموت عنى؟ إنها لن تعرف أبداً! إنها لن تفهم أبداً! وليس فى
تصورها أن تضارع هذا الموت».

وفى صمت قامت فى ايقاع منتظم ناعم بدعك جرحه بالزيت .
وانصرفت الآن تماماً إلى عملها ككاهنة وهى تستجمع قوتها
برقة ونعومة بينما تعالت حشايا الرجل الجوهريّة فى صراخ
مذعور . وبينما هى تستجمع قوتها بالتدريج وتضع حزاماً
حوله ناحية الجرح المقابل إذا بالسدف يبدأ بالتدريج فى
الخلول محل الرعب البارد . وشعر الرجل : «سوف يدب
الدفع فى أطرافى مرة أخرى وسوف أصبح سليماً معافياً!
سوف أكون دافئاً مثل الصباح وسوف أصبح رجلاً . هذا لا
يحتاج إلى فهم بل يحتاج إلى جدة وسوف يجلب التجديد
لى».

وانصت إلى عويل الحزن الخافت الذى لا ينتهى النابع من
جروحه كما لو كان أتيا إلى الأبد من تحت آفاق وعيه . ولكن
العويل ازداد خفوتا أكثر فأكثر.

وفكر فى المرأة التى تجهد نفسها من جرائه : «إنها لا تعرف !

إنها لا تدرك الموت الذى أصابنى . ولكن لديها وعى آخر . إنها
تجىء إلى من طرف الليل المقابل».

وبعد أن قامت بدعك كل الجزء الأسفل من جسمه وهى مشغولة
بأداء عملها بجدية بطيئة تليق بها ككاهنة لدرجة أن صوت جراحه
بدأ يخفت أكثر فأكثر .

وفجأة وضعت صدرها على الجرح فى جنبه الأيسر وأحاطته
بذراعيها طاوية بذلك الجراح فى جنبه الأيمن وضمته إليها فى قوة
الدفع النابض بالحياة مثل ثنايا نهر . واختفى النحيب تماماً .
وحل صمت وظلام فى روحه ... صمت مظلم لا ينتهى هو الكمال
والاكتمال.

وفى بطاء شديد وفى الظلام الكامل الموجود فى رجولته الداخلية
شعر بحركة ونأمة شىء قادم . إنه الفجر والشمس الجديدة .
بدأت تسطع فيه شمس جديدة . انتظر بزوغها وهو لاهث يرتعد
وقد ملأه أمل مذعور : «الآن لم أعد نفسى فقد تحولت إلى شىء
جديد».

وعندما نهض شعر فى أنفاس خيبة الأمل الباردة بالحزام
الذى طوقته به المرأة الحية وقد انزلق من جسده كما شعر بالدفع
والوهج ينزلقان منه أيضاً وقد تركاه عاريا . وجرمزت منهوكة
القوى تحت قدمى الإلهة وهى تخفى وجهها .

وانحنى ليضع يده برقة على كتفها الدافئ الوضىء وسرت
صدمة الرغبة فى أرجائه . سرت صدمة تلو الأخرى لدرجة أنه
تساءل إذا لم تكن هذه الصدمات نوعاً آخر من الموت . ولكنه موت
مفعم بالجلال .

والآن تركز كل وعيه فى المرأة المختبئة المجرمزة . وانحنى
بجوارها وهو يريت عليها برقة ودون أى نظر وهو يتمم بأشياء
غير واضحة . وزال عنه الآن تماماً موته ورغبته العارمة فى
التضحية . عرف فقط اكتمال المرأة المجرمزة هناك ... صخرة
الحياة البيضاء الناعمة ... فكر : «على هذه الصخرة أقمت
حياتى» ... صخرة المرأة الحية . المطوية أغوارها العميقة والتي
يمكن اختراقها ! كانت المرأة تخفى وجهها . وكان هو فى انحنائه
قويا وجديدا مثل انبلاج الفجر .

وجرمز نحوها وشعر بوهج رجولته وقوته يصعد فى روعة إلى
حقويه .

قال : «لقد قمت من الأموات.»

بزغت شمس فى أعماق حقويه رائعة متوهجة ، ولا سبيل إلى
كبحها ، ونفثت نارها فى اطرافه فلمع وجهه دون وعى منه .

وفك رباط ردائه المصنوع من الكتان تاركاً إياه ينزلق من فوق
جسده حتى شاهد الوهج الأبيض فى صدرها الذى يشبه الذهب

الأبيض . ولس تدييها وشعربأن حياته قد ذابت . قال : «ياأبتاه
لماذا أخفيت هذا عني» .

وتحسسها بحدة اندهاشه وقد مزقته شفافية الرغبة العجيبة
المدهشة.

قال : «إن هذا ليتجاوز حدود الصلاة» . شعر بالدفء العميق
المطوى .. الدفء النابض بالحياة والذي يمكن اختراقه .. دفء
المرأة ... قلب الوردة . وأنا أسكن الوردة الدافئة المتداخلة .
وفرحتى تكمن فى إيقاعها! .

وتطلعت إليه فجأة .. بدا وجهها مثل الضوء المرفوع الحزين
الرقيق كما بدت عيناها مثل زهور كثيرة مبللة . وضمها إلى
صدره بعاطفة حنان متأججة تختلط بالرغبة الحارقة . وكان فكره
الأخير: «لقد حانت ساعتى وأخذت على غرة».

ثم عرفها وأصبح الاثنان شيئاً واحداً .

وبعد ذلك لمست بأطراف أصابعها فى اندهاش معتم
أثار الجروح العظيمة فى جنبه وسألته : وجروحك لم تعد
تؤلمك؟»

قال : إنها شמוש تسطع من وهج شعلتك . إنها كفارتى
مفك» .

وعندما غادرا المعبد كان الجو باردا قبل انبلاج الفجر . وحين
أغلق الباب نظر مرة أخرى إلى الإلهة وقال : «لغمرى إن ايزيس
إلهة حانية تفيض بالركة والعذوبة . إن ذكور الإلهة العظيمة تتميز
بدفء القلب ولديها إلهات إناث رقيقات».

ولفت المرأة نفسها فى وشاحها وعادت إلى دارها فى صمت
وهى لا تبصر من حولها شيئا شاردة اللب مثل زهرة لوتس تنغلق
أوراقها مرة أخرى وقلبها الذهبى يفيض بالحياة المتجددة . لم تر
شيئا لأن أوراقها كانت بمثابة غمد لها . فقط قالت : «ان
أحشائى ملأى بأوزوريس . إننى ملأى بأوزوريس الذى قام من
الأموات!»

ولكن الرجل نظر إلى النجوم التى تفيض بالحياة . قبل انبلاج
الفجر وهى تمطر على البحر من تحتها كما نظر إلى خضرة النجم
المعروف بالنجم الشعري ترنو إلى حافة البحر كم هى خضرة لدنة
وطرية ، ولكم هى ملأى بالثنايا والمنحنيات مثل وردة غير منظورة
تتفتح أوراقها السمرء كى تبين المكان الذى يلمس فيه الندى
سمرتها ! كم هى مكتملة فى عظمة تفوق عظمة الآلهة طرا .
وياالروعتها وهى تميل من حولى وأنا جزء منها ... من وردة الفضاء
العظيمة . أنا مثل الحبة فى عطرها كما أن المرأة تشبه الحبة فى

جمالها . الآن أصبح زهرة واحدة تتكون من ظلمات كثيرة موزقة
ويانعة .

ونام فى مغارته بينما طلع الفجر وهو فى سكون اللسة
واكتمالها المطلق . وبعد الفجر هبت الريح وأتت بعاصفة يصحبها
المطر البارد..

وهذا مكث فى المغارة فى سلام وابتهاج من عرف اللمس وقد
غمرته الفرحة بسماع البحر . وتساقط المطر على الأرض .
ورأى زهرة نرجس تنحنى مبلة فى مثل بياض الذهب الأبيض .
وظلت فى بللها . إن البحر الداكن والمطر الداكن وزهرة النرجس
المبلة والمرأة التى انتظرها وإيزيس التى لا يراها أحد والشمس
غير المرئية .. جميعها توحدت وأصبح بعضها يلمس البعض
الآخر.

وانتظر عند المعبد مجيء المرأة التى جاءت أثناء هطول المطر .
وقالت له :

«دعنى أجلس برهة مع إيزيس ثم تعال إلىّ . فهلا أتيت إلى فى
الهزيع الثانى من الليل؟»

ثم عاد إلى المغارة وجلس فى صمت وفى بهجة من عرف
اللمس، وانتظر المرأة التى ستحضر إليه بمجىء الليل وتكمل
اللمس ، مرة أخرى . وعندما حل الليل جاءت المرأة ... جاءت

جذلة لأنها كانت تتحرق شوقاً سعياً إلى اللمس .. من أجل أن تقترب منه وتلمسه .

ثم جاءت الأيام وجاعت الليالى . وتكرر مجيء الأيام وتحقق اللمس واكتمل . قال :

«لن أستفسر منها عن أى شىء ولا حتى عن اسمها لأن ذلك يفرقنى عنها» .

وقالت هى لنفسها : «إنه أوزوريس وكفى» .

وهبت رائحة ازدهار البرقوق من الأشجار . وكان موسم النرجس قد ولى وانقضى . وأضاء نبات الأنيمونيا الأرض قبل أن يختفى وانتشر فى الهواء أريج حقول البقول . لقد تغير كل شىء . وغيرت زهرة الكون أوراقها ، واستدارت كى تنظر فى الاتجاه الآخر . واكتمل الربيع . وتحقق اللمس . واكتمل الرجل من المرأة واكتملت المرأة من الرجل . وأصبح الرحيل وشيك الحدوث .

وذات يوم قابلها تحت الأشجار عندما كانت شمس الصباح ساخنة ، وانتشرت رائحة أشجار الصنوبر العطرة . وانتشرت على الجبال ثمار الكمثرى . اتجهت نحوه ببطء . وعرف أن تغيراً طرأ عليها من تلكئها الحانى ومن ابتعادها الرقيق عنه .

سألها : « هل أنت حبلى؟ »

قالت : « لماذا؟ »

« أنت مثل شجرة يكسو الازدهار أوراقها الخضراء الممتلئة
بالعصارة. ثم إنك أخذت فى الابتعاد عني؟ »

قالت : « صحيح أنى حبلى منك وهذا شىء طيب؟ »

قال : « وكيف لا يكون طيباً؟ ولهذا توقف العندليب عن النداء
والغناء من قاع الوادى . ولكن أين تلدين الطفل ؟ فأنا لا أملك أى
شىء غير الحياة. »

قالت : « سوف تمكث هنا. »

« ولكن ماذا ستقول السيدة والدتك؟ »

وعبرت الظلال حاجبها . ولم تخر جوابا.

قال : « ماذا سيحدث عندما تعرف؟ »

« لقد بدأت تعرف. »

« وهل ستلحق بك الأذى »

« كلا لن تؤذيني فأنا أملك كل ما لدى . وسوف يملأ أوزوريس

بطنى، ولكن هل أنت تراقب عينيها؟ »

نظرت إليه وعكر القلق صفو أمومتها.

قال : « لا تجعلى قلبى يضطرب فقد مت مرة » .

وعرف أن الوقت قد حان، مرة أخرى، كي يشد رحاله . سوف يذهب بمفرده حاملاً معه قدره . ورغم هذا فلن يكون بمفرده لأن اللمسة سوف تبقى معه حتى بعد أن ترك لمسته عليها . وسوف تذهب شמוש غير منظورة معه.

ومع هذا فقد تعين عليه أن يذهب . ولكن هاهنا على الخليج استأنفت حياة الغيرة والتمك التافهة قوتها مرة ثانية ، بينما أرخت الخصوبة المتأججة من عنفوان الغيرة والتمك . وباسم التملك سوف تسعى الأرملة وعبيدها إلى الانتقام منه بسبب الخبز الذي أكله ، واللمسة الحية التي أتى بها ، والمرأة التي تمتع بها . ولكنه قال : « لا يمكن لهذا أن يحدث لى مرتين ، إنهم لن يدنسوا الآن اللمسة الكائنة فى . وسوف أقاوم كل ما تتفتق عنه أذهانهم بكل ما يتفتق عنه ذهنى».

وهكذا راقبهم وعرف مؤامراتهم وابتعد عن المفارة الصغيرة ووجد ملجأ آخر كان عبارة عن خور صغير من الرمل بجوار البحر. كان ملجؤه جافاً وخافياً عن الأنظار تحت الصخور .

قال للمرأة : «يجب الآن أن أذهب فى الحال . فسوف تأتيني المتاعب من العبيد . ولكنى رجل وأبواب العالم مفتوحة الآن أمامى . والذي يربطنا شىء طيب عميق وراسخ . عليك السلام .

وعندما يرتفع صوت العندليب مناديا من قاع الوادى سوف أتى مرة أخرى فى مثل يقين الربيع».

قالت : «آه لا تذهب! ابق معى فوق نصف الجزيرة وسوف أشيد منزلا لك ولى تحت أشجار الصنوبر بجوار المعبد حيث يمكننا أن نعيش منفصلين ».

ومع هذا فإنها أدركت أنه سوف ينصرف ، بل انها أرادت أن تحيطها برودة هوائها الخاص بها كما أرادت أن تتخفف من القلق.

قال : «إذا مكثت فسوف يخونوننى لدى الرومان ويقدموننى إلى المحاكمة ولن أقبل أبدا أن يخوننى أحد مرة ثانية . ولهذا، عيشى فى سلام مع طفلك النامى حين أنصرف . وسوف أتى مرة أخرى . فكل ما بيننا طيب سواء كنا قريبين أو بعيدين . إن الشموس تأتى فى مواسمها . وسوف أعود مرة أخرى».

قالت : «انتظر بعض الوقت قبل أن تذهب . لقد كلفت عبدا بمراقبة عنق شبه الجزيرة . فلا تذهب قبل أن تتأكد من عدم تعرضك للأذى».

ولكنه سمع ضربات المجاديف الناعمة بينما كان راقدا فى خميلته الصغيرة فى ليلة هادئة ساكنة وصوت ارتطام القارب على

الصخرة . وزحف إلى الخارج لينصت فسمع المشرف الرومانى يقول:

«جدف برقة إلى وكر الماعز وسوف يقوم ليسيوس بإلقاء الشبكة على المجرم أثناء نومه وسوف يحضره إلى القاضى . وسوف نخفى هذا الأمر عن كاهنة إيزيس».

وهبت نفخة ريح فى أجساد العبيد العارية والمدهونة بالزيت وهم يزحفون إلى أعلى تجاه الرجل الذى سبق أن مات . ثم شم العطر الخفيف المنبعث من الرجل الرومانى . وزحف ليقترّب أكثر البحر . . وجلس الرجل الموجود فى القارب وهو لا يحرك ساكنا ممسكا بالمجاديف لأن السكون كان يسود البحر تماما . وتعرف الرجل الذى سبق أن مات عليه . وقال بصوت واضح من خلال الشق العميق الموجود فى الصخرة :

«أست ذلك العبد الذى واقع الفتاة العذراء تحت أبصار إيزيس؟ أأست أنت هذا الشاب؟ تكلم!»

وانتصب الشاب واقفا مفزوعاً فى القارب . وتسببت حركته فى ارتطام القارب بالصخرة . وقفز العبد خارج القارب فى خوف عظيم وخف هاربا بين الصخور . وبسرعة أمسك الرجل الذى سبق أن مات بالقارب ودخل فيه ودفعه كى يتحرك على سطح الماء . وكانت المجاديف لا تزال دافئة بدفء أيادى العبيد غير السار .

ولكن الرجل دفع القارب ببطء لىبتعد به عن الشاطئء ويصل إلى مجرى التيار حتى يحمله فى صمت . وقبع الساحل المرتفع فى ظلام دامس قبالة الليل الذى تضيئه النجوم. ولم تأت من شبه الجزيرة أية ومضة ضوء . وامتنعت الكاهنة عن المجيء فى الليل . وجدف الرجل الذى سبق أن مات ببطء مع التيار وهو يقول لنفسه ضاحكا : «لقد غرست بذرة حياتى وبعثى ووضعت لمستى إلى الأبد فى أحلى امرأة فى هذا الزمان . وإنى أحمل عطرها فى جسدى مثل أريج الورد . إنها أثيرة إلى قلبى وتحتل المركز فى كيانى. ولكن الحية الذهبية العائمة تلتف حول نفسها مرة أخرى لتنام عند جذع شجرتى» .

«لذا فليحملنى القارب . وسوف يكون الغد يوما آخر».

لورانس
سيرة حياته

د. هـ . لورانس

سيرة حياته

كان الأديب الانجليزي العبقري د. هـ لورانس متعدد المواهب يؤلف القصة والرواية والقصيدة الشعرية فضلا عن أنه خلف وراءه مجموعة كبيرة من الرسوم واللوحات ، وليس أدل على غزارة إنتاجه من هذه القائمة بأعماله الأدبية مرتبة ترتيبا زمنيا :

«الطاووس الأبيض» ، (١٩١١) ، «المعتدى» ، (١٩١٣) ، «قصاصد حب وأشياء أخرى» ، (١٩١٣) ، «أبناء وعشاق» ، (١٩١٣) ، «ترمل مسز هولرويد» ، (١٩١٤) ، «الضابط البروسي» ، (١٩١٤) ، «قوس قزح» ، (١٩١٥) ، «الشفق في ايطاليا» ، (١٩١٦) ، «أمورس» ، (١٩١٦) ، «انظر لقد انتهينا» ، (١٩١٧) ، «قصاصد جديدة» ، (١٩١٨) ، «خليج» ، (١٩١٩) ، «المس وذهب» ، (١٩٢٠) ، «نساء عاشقات» ، (١٩٢٠) ، «الفتاة الضائعة» ، (١٩٢٠) ، «حركات في التاريخ الأوربي» ، (١٩٢١) ، «التحليل النفسي واللاوعى» ، (١٩٢١) ، «السلحفاة» ، (١٩٢١) ، «البحر وساردينيا» ، (١٩٢١) ، «عصا أريون» ، (١٩٢٢) ، «فانتازيا اللاشعور» ، (١٩٢٢) ، «انجلترا بلدى وقصص أخرى» ، (١٩٢٢) ، «طائر الست والثعلب ودمية الكابتن» ، (١٩٢٣) ، «دراسات في الأدب الأمريكى الكلاسيكى» ، (١٩٢٣) ، «الكانجارو» ، (١٩٢٣) ، «طيور ووحوش وازهار» ، (١٩٢٣) ، «الصبي في

الشجيرة، (١٩٢٤) «سانت مور والأميرة»، (١٩٢٥) ، «أفكار عن موت
 الدندل ومقالات أخرى»، (١٩٢٥) ، «الافعى ذات الريش» ، (١٩٢٦) ،
 «دافيد»، (١٩٢٦) ، «الشمس» ، (١٩٢٦) ، «أشباح فرحة»، (١٩٢٦)
 «الصباح فى المكسيك» ، (١٩٢٧) ، «سقف رودون» ، «قصائد د. هـ .
 لورانس المجموعة» ، (١٩٢٨) ، «النساء اللائى ابتعدن وقصص أخرى»،
 (١٩٢٨) ، «عشيق الليدى تشاترلى» ، «لوحات د. هـ . لورانس»
 (١٩٢٩) ، «زهرة البنفسج» ، (١٩٢٩) ، «مناوشتى مع جولى روجر»
 (١٩٢٩) ، «الأدب المكشوف والبذاءة» ، (١٩٢٩) ، «الديك الهارب أو
 الرجل الذى مات» ، (١٩٢٩) ، «نبات النيتل» ، (١٩٣٠) ، «العذراء
 والفجرى» ، (١٩٣٠) ، «الحب فى أكوام القش» ، (١٩٣٠) ، «انتصار الآلة»
 (١٩٣٠) ، «بشأن الليدى تشاترلى» ، (١٩٣٠) ، «الرؤيا» ، (١٩٣١) ،
 «أماكن أوترسكانية» ، (١٩٣٢) ، «قصائد أخيرة» ، (١٩٣٢) ، «سفينة
 الموت وقصائد أخرى» ، (١٩٣٣) ، «السيدة المحبوبة» ، (١٩٣٣) ،
 «مسرحيات د. هـ. لورانس» ، (١٩٣٣) ، «ليلة جمعة عامل فى منجم
 فحم» ، «العاشق الحديث» ، (١٩٣٤) ، «حكايات د. هـ. لورانس»
 (١٩٣٤) ، «العتقاء : أوراق د. هـ. لورانس بعد وفاته» ، (١٩٣٦) ،
 «المعنى الرمزي : دراسات لم يسبق جمعها فى الأدب الكلاسيكى الجديد
 » ، (١٩٦٢) ، «خطابات د. هـ. لورانس : المجموعة» ، (١٩٦٢)

ولد د. هـ. لورانس - واسمه بالكامل دافيد هيريت ريتشارد لورانس -
 من أبوين تعيسين هما آرثر جون لورانس وزوجته ليديا لورانس فى يوم
 ١١ سبتمبر عام ١٨٨٥ فى قرية إيستوود بمنطقة نوتنجهام شير المشهورة

بمناجم الفحم ، وهى قرية وطأها التضييع بأقدامه - شأنها فى ذلك شأن الكثير من قرى المنطقة - فأحال جمالها مسخا ونضارتها قبحا ولوث نقاءها الدخان الكثيف الأسود المتصاعد من المناجم والمصانع المجاورة، ولكن الطبيعة فى ايستود على أية حال لم تكن حتى أيام لورانس قد فقدت كل بهائها ، إذ أنها كانت حينذاك مزيجا غريبا من القبح والجمال والمسوخ والنضارة ، وذلك لأن التضييع البغيض لم يكن بعد قد زحف إلى كل مكان ليدنس كل ماهو نقى ويشوه كل ماهو جميل ، ويعبر لورانس عن مقتنه لوجه التضييع الشانه الذى بدأ يطل على ربوع الريف الانجليزى فى احدى مقالاته التى تحمل عنوان «نوتجها مومناجم الريف» فيقول :

«إن الجريمة البشعة التى ارتكبتها الطبقات الموسرة ورجال الصناعة فى العصر الفيكتورى المزدهر هى أنها جعلت العمال يرسفون فى اغلال القبح القبح القبح جعلتهم يرسفون فى حياة دنيلة ، وبيلة قبيحة لاشكل لها ، وفى مثل عليا قبيحة ، ودين قبيح ، وأمل قبيح ، وحب قبيح ، وثياب قبيحة ، وأثاث قبيح ، ومنازل قبيحة ، وعلاقات قبيحة بين العمال وأصحاب الأعمال . إن روح الإنسان تحتاج إلى الجمال الفعلى أكثر من احتياجها للخبز الذى تقتات به . . .

كان لورانس أصغر ابن فى عائلة تتكون فيما عداه من ابنين أكبرهما جورج ، يليه وليم ارنست ؛ ومن ابنتين كبيراهما تدعى اميلى أونا وصغراهما تسمى ليتيس ايدا .. وكان هزيلا ضامرا عند مولده بعكس أخويه الذكرين اللذين توفرت لهما كل أسباب الصحة والعافية . ويقول وليم هوبكن - أحد اصدقاء العائلة - إن لورانس بدا فى شهره الأول مثل

أرنب مسلوخ ، وإنه عندما التقى ذات يوم بمسز لورانس فى الطريق العام فى قرية ايستوود - وهى تدفع بيديها عربة الأطفال التى تحمل ابنها الهزيل - هزت الأم رأسها فى أسى وقالت إنها لا تتوقع لطفلها أن يظل على قيد الحياة أكثر من ثلاثة أشهر

وعاش والدا لورانس الشقيان جل حياتهما فى عراق متصل بلغ بهما مبلغ القطيعة والنفور . كان أبوه - وهو عامل فى منجم للفحم فى ايستوود - قبل زواجه جسورا مرحا يهوى الرقص ويجيده ، ويتحدث عن عمله المضنى الشاق فى ظلام المنجم تحت باطن الأرض بأسلوب يضى على هذا العمل نوعا من الرومانسية المحببة إلى النفس ورأت مسز ليديا فيه طرازا فريدا من الرجال لم يسبق أن التفته قبل ذلك فأغراها ذلك بزواج ظلت تندم عليه طيلة حياتها . كانت هذه المرأة - وهى ابنة مهندس متدين ومتزمت أخنى عليه الدهر - تتمتع بقدر من الثقافة والمعرفة واشتغلت بالتدريس قبل زواجها بعض الوقت ، ويقال إنها كانت تقرض شيئا من الشعر . وعلى الرغم من غلظة البيئة التى عاشت فيها بين عمال المناجم وزوجاتهم فقد ظلت تتحدث بلغة المتعلمين الراقية التى تغاير اللغة الخشنة التى يستخدمها زوجها الجلف وجيرانها الأجلاف . ومن ثم يتضح أنها كانت بالرغم من فقرها تنتمى بالأصل والطبع معا إلى الطبقة البورجوازية ، فى حين ينتمى زوجها بالخلق والعمل إلى طبقة البروليتاريا ، ويذهب بعض النقاد إلى أن لورانس يصور فى روايته «أبناء وعشاق» (١٩١٣) الصراع المحتدم بين أبويه على أنه بالدرجة الأولى صراع طبقى بين البورجوازية والبروليتاريا .

وبالرغم من أنه يتخذ في هذه الرواية ، من هذا الصراع ، موفقا محايدا فإن حيدته اختلفت فيما بعد كما يتضح لنا من لومه اللاحق لأمه

كان لورانس نهبا موزعا بين العطف على أبيه والولاء لأمه ، ويمكننا أن نستبين التأرجح في موقفه من أبيه إذا قارنا بين ما كتبه في قصيدته «الرنجة الحمراء» وبين بعض الاعترافات التي أسربها إلى نفر من اصدقائه ففي هذه القصيدة يعبر عن ازدرائه لأبيه واحتقاره له كما يصر في الوقت نفسه على تبجيله لوالدته . يقول لورانس في «الرنجة الحمراء» :

«لقد كان أبى عاملا ولكن روح أمى كانت تسمو على روحه» ، وإذا استعرضنا موقفه من أبيه كما صوره في سيرة حياته الذاتية «أبناء وعشاق» فإنه يتضح لنا على الفور عطفه على أمه ومقته لأبيه ، وتؤكد لنا أخته ايدا أنه استمد مادة «أبناء وعشاق» الروائية من واقع حياة أسرته وان قصة زواج أمها من أبيها عامل المنجم - واسمه في الرواية والترموريل - ليست سوى تسجيل صادق للواقع ، كما أن الإحباط الذي منيت به مسز موريل في هذه الرواية يطابق الإحباط الذي منيت به مسز لورانس في الحياة . فقد أحبت مسز لورانس في صباها شابا متدينا ومتعلما كانت تتطلع إلى الزواج منه ، ولكنه انصرف عنها ليتزوج امرأة تكبره سنا طمعا في مالها ، ولم يمض وقت طويل على زواج مسز ليديا لورانس من عامل المنجم آرثر چون لورانس حتى بدأ الخلاف الشديد يدب بينهما وأصبحت حياتها معه جحيما لا يطاق ، فقد كانت الزوجة كما يصفها لورانس في روايته مثل أبيها في شدة تدينها وتزمتها البيوريتانى،

تمقت معاقرة الخمر ، طموحة تقبل عن كره ماتعيش فيه من املاق ،
ونشب الخلاف بين الزوجين عندما اكتشفت الزوجة أن رجلها الذى وعدا
بالكف عن الشراب يخفى جانبا من أجره الضليل لينفقه فى الحانات مع
أصدقائه من العمال ، ثم يعود إلى البيت ثملا مخمورا يغلظ فى معاملتها
ويفحش لها فى القول ويجنح إلى استخدام العنف معها ، وكانت وسيلة
الأم فى الانتقام من زوجها أن تسعى ما وسعها السعى إلى تنفير الأبناء
من أبيهم وبث روح الكراهية فيهم حتى غدوا يمقتونه مقتا لامزيد عليه ،
وكان مجرد وجوده فى البيت يلقى عليهم ظلالا كثيفة من الخوف والفرع
والحزن والاكتئاب ، الأمر الذى أشعر الأب بالغربة المريرة فى عقر داره ،
وقد اعترفت لنا ايدا فيما بعد أن الأسرة انتهجت سياسة خاطئة عندما
ابتعدت عن الأب ولم تظهر نحوه أدنى قدر من الحنو والعطف والاشفاق .
وتروى لنا اتسساه بروسستر - وهى صديقة لـ د. هـ لورانس كانت
تعيش مع زوجها فى جزيرة سيلان - ان لورانس اعترف فى حضرتها
وحضرة زوجها عندما قابلهما فى هذه الجزيرة عام ١٩٢٢ (أى بعد
انقضاء عشرة أعوام على كتابة «أبناء وعشاق» ، أنه يشعر أنه تجنى
على والده فى هذه الرواية ، الأمر الذى جعله يحس أنه يجدر به أن يعيد
كتابتها من جديد ، فقد اتضح له بعد فوات الاوان ان العيب لم يكن فى
أبيه الذى كان يحيا حياته بطريقة منطلقة تلقائية ويستغرق فيها بنهم ،
بل فى أمه المتزمتة التى كانت تعتقد أنها تتحلى من الفضائل بما لا
يتحلى به الآخرون فهى التى ضحت بهذا الرجل على مذبح تزمته وهى
المسئولة عن خنق تلقائيته وتلقائية الأبناء معا .

وفى صباه أحب لورانس فتاة تصغره بعام واحد تدعى «جيسى تشامبرز» التقى بها فى صيف عام ١٩٠١ فى مزرعة تملكها عائلتها على بعد نحو ميلين شمال ايستوود . وتعرف لورانس بهذه الفتاة قبل التحاقه بالعمل ككاتب فى أحد مصانع نوتنجهام بزمان قصير . ودامت علاقته بها ما يقرب من اثنى عشرة عاما قدر لها أن تكون أعواما عنيفة ، ويصور لورانس علاقته المضطربة بهذه الفتاة فى روايته «أبناء وعشاق» حين يسمى نفسه بول موريل ويسمى الفتاة ميريام ليفرز بدلا من اسمها الحقيقى جيسى تشامبرز . وحدث أول لقاء بين جيسى تشامبرز ولورانس فى اجتماع من اجتماعات مدارس الأحد . ولولا التقاء والدتى الفتاة والفتى لما قيض لهما أن يؤلف الحب بين قلوبيهما . ويرجع السبب فى توطد العلاقة بين الوالدين أن أم لورانس أنست إلى أم جيسى التى كانت حديثة العهد بالمنطقة نسبيا فباتت تبثها لواعج نفسها وما تراكمت فيها من مرارة على مدى عشرين عاما عاشتها فى ايستوود بين عمال المناجم وزوجاتهم ، وبالرغم من أن والدة لورانس وعدت والدة جيسى بأن تزورها فى مزرعتها فقد قضت ثلاثة أعوام قبل أن تفى بالوعد الذى قطعتة على نفسها . وعندما قررت مسز لورانس أخيرا أن تزور صديقتها اصطحبت ابنها الأصغر معها ، ويسجل لورانس تفاصيل هذه الرحلة فى يوم من أيام الصيف فى روايته «أبناء وعشاق» . ويبدو أن والده لورانس انقطعت عن زيارة صديقتها بعد المرة الأولى ولكن زيارات ابنها الأصغر لعائلة تشامبرز استمرت بشكل منتظم ، وكثيرا ما كان يحضر معه إحدى المجلات ليطلع أفراد العائلة عليها . ورغم أن علاقة الغلام لورانس بوالد جيسى كانت ودية للغاية فإن إخوتها الذكور كانوا يتحاشونه

فى بادىء الأمر خوفاً من أن يسلك معهم مسلكاً متعجرفاً أو متعالياً ، وتذكر جيسى أن لورانس فى ذلك الوقت كان يحضر فجأة ويدلف فى هدوء إلى المطبخ الدافئ الذى تتبعث منه رائحة (الخبيز) الزكية ، ولكن زيارات لورانس لعائلة تشامبرز بدأت تقل بعد التحاقه بالعمل ككاتب فى نوتنجهام ، وفى صيف عام ١٩٠٦ رافقت جيسى د هـ لورانس ووالدته لقضاء إجازة على شاطئ لينكولن شير ، وفى خلال هذه الإجازة عاملها لورانس بقسوة . وعندما كتب د هـ لورانس روايته «أبناء وعشاق» أمدته جيسى بمذكرات سجلت فيها علاقته بها وقسوته عليها ، وقد أفاد لورانس من مذكرات جيسى فى هذا الصدد وضمنها ذلك الفصل من الرواية الذى يحمل عنوان «هزيمة ميريام» وفيه يطلب اليها بول أن تتفصل عنه لأنها لا يحببان بعضهما البعض حبا خالصا . وتدل الحادثة التالية على موقف والدته لورانس الاخلاقى المتشدد فى شئون الجنس ، فقد كانت لا تكف عن لفت نظر أفراد عائلتها إلى المصائب التى يمكن أن تلحق بالمرء من جراء خمس دقائق من اللذة ينسى فيها المرء نفسه كانت لظروف نشأة د هـ لورانس فى قرية ايسستوود أثرها البالغ فى أدبه فقد تبوأ الريف فى قلبه مكانا بارزا وانعكس كلفه به على انتاجه الفنى ، ويتضح لنا من دراسة هذا الانتاج أنه لايعنى بتصوير المدينة الا قليلا ، ولم يكن لورانس نفسه يطيق أن يعيش فى المدن طويلا .

صحيح أن أحداثه الروائية قد تقع فى ضواحي المدن ولكن الطابع الريفى يغلب عليها . فالبيئة الريفية تستأثر باهتمامه أكثر مما تستأثر الضواحي به ، ولعل الصواب لايجانبنا إذا قلنا إن المستعمرة أو المدينة

الفاضلة التى ظل لورانس طيلة حياته يحلم بإنشائها تحت اسم «رنانين»
لم تكن سوى قرية تخيلها فى صورة مثالية .

ومهما كان الأمر فإن حياة د ه لورانس لم تكن يؤسا كلها ، فقد
كان يفرح بزيارة السوق التى تقام مرتين كل عام لمدة ثلاثة أيام من
شهرى سبتمبر ونوفمبر ، كانت سوق سبتمبر تقام على مساحة من الأرض
الفضاء أمام الحانة التى كان الأب يتردد عليها ، وهى نفس الحانة التى
صورها لورانس فى روايته «أبناء وعشاق» . ونحن نقرأ فى الفصول
الأولى من هذه الرواية أن الأطفال يغمروهم الفرح والابتهاج عندما
يزورون هذه السوق ، فى حين يحتسى الأب الخمر فى الحانة المجاورة ،
ثم يعود إلى بيته حيث تستقبله زوجته بالملامة والتقريع وتبدأ حلقة من
سلسلة المنازعات الزوجية العنيفة التى لاتنتهى ، أما السوق الأخرى
التي كانت تقام فى شهر نوفمبر من كل عام فيرجع أصلها إلى تقليد
قديم اندثر بمرور الزمن . ولكن فكرة إقامة السوق نفسها استمرت بالرغم
من اندثار الأصل ، فقد كان الفلاحون من القرى المجاورة يحضرون إليها
بحثا عن العمل ، وكانت العادة المتبعة حينذاك أن يأتى أصحاب الأعمال
إلى السوق لاختيار من يشاءون من العمال وعقد اتفاق معهم ، وكان
صاحب العمل يعطى الفلاح الذى يريد استجاره بنسا واحدا بمثابة عربون
أو عقد اتفاق بينهما ، فيصبح بذلك لزاما على هذا الفلاح أن يعمل فى
خدمته لمدة عام بأكمله . وفى طفولته أيضا كانت الفرحة تستبد ب د ه .
لورانس حين يحضر حفلات التمثيل التى تقيمها تحت خيمة كبيرة بعض
فرق التمثيل المحلية المتجولة عند زيارتها لقرية ايستوود . ومن بين
التمثيليات التى شاهدها لورانس فى طفولته وتركت فى نفسه أعماق

الأثر- رغم فجاجة تمثيلها وما تردى فيه الممثلون من أخطاء - مسرحية شكسبير المعروفة «هاملت» ، وتأثر لورانس بالذات بذلك المشهد الذى يظهر فيه شبح والد هاملت وهو يرتدى درعا ويخاطب ابنه قائلا : «هاملت انتى شبح أبيك» . وكان لورانس كذلك يحضر حفلات الاستماع إلى الأدب المقروء التى يرتادها المستمع نظير بنس يدفعه وكانت أهم فقرة فى هذه الحفلات الأدبية قراءة بعض أعمال ديكنز الروائية من فوق منصة ، تماما كما كان ديكنز نفسه يفعل أثناء تجواله فى البلاد ، ولكن مما يؤسف له أن هذا التقليد الأدبى الجميل اندثر فى يومنا الراهن . وإلى جانب ذلك أنشأ روبرت ريد - الذى عين قسيسا فى إيستوود - جمعية أدبية كان لورانس يتردد عليها ، وتوثقت عرى الصداقة بين هذا القسيس ووالدة لورانس ، فقد كانت تأنس إليه بقدر ما كان يأنس إليها نظرا لما لاحظته فيها من عناية بالثقافة واهتمام بشئون الفكر والأدب . ويجد من يقرأ رواية «أبناء وعشاق» تسجيلا لزيارات هذا القسيس المتكررة لوالدة لورانس التى كانت تستقبله بكل حفاوة وتقدير ، كما تسجل هذه الرواية كيف كان زوجها عامل المنجم يعتمد مضايقة هذا القسيس وإحراجة ، وذلك بالإلحاح عليه أن يتحسس على ملابسه آثار العرق الذى كان يتصبب منه أثناء عمله المضنى تحت باطن الأرض .

كان لورانس فى طفولته يتردد كثيرا على الكنيسة ، الأمر الذى حدا به فيما بعد إلى أن يكتب أنه تشرب الإنجيل منذ نعومة أظفاره ، ويتضح لنا أن سفر الرؤيا ، الذى يتنبأ فيه يوحنا بنهاية العالم ، كان دائما ماثلا أمامه بسبب كثرة ترديده على مسامعه ، يقول لورانس فى هذا الصدد :

« كنت أعرف منذ طفولتي المبكرة لغة سفر الرؤيا وصوره ، ولا يرجع هذا إلى أنى كنت أقضى وقتى فى قراءته ولكنه يرجع إلى أنهم كانوا يرسلوننى إلى مدارس الأحد والكنيسة وجمعية خلاص النفوس وجمعية المساعى المسيحية ، كانوا دائما يتلون على سمعى آيات الإنجيل سواء كنت راغبا فى ذلك أم كارها فيه .

ولحسن حظ د. هـ لورانس فى طفولته ان المشرف على مدارس الأحد فى ذلك الوقت - وهو رجل ذو لحية بيضاء اسمه مستر ريمنجتون- كان يلقن الأطفال الترانيم الدينية ذات الطابع الحماسى مثل ترنيمة «اطلقوا صرخة المعركة، و «ذودوا عن القلعة لأنى آت إليكم، و «هبوا للدفاع عن يسوع المسيح» ، فقد كانت هذه الترانيم الدينية بما تنطوى عليه من روح قتالية تروق له أكثر مما تروق له الترانيم الوديدة أو المستسلمة . ولاشك أن هذا يعطينا صورة واضحة عن تأصل روح النضال أو القتال فيه منذ نعومة أظفاره ، ويتذكر لورانس موقفه من الدين فى تلك الفترة المبكرة من حياته ، فيقول :

«إن فظاعة العواطف السنتمتالية الرخيصة التى اعترت الدين كأنها مرض البرص لم تكن قد اجتاحت قريتنا المنتجة للفحم ، وانى ما زلت أذكر اننى عندما كنت فى الصف الثانى فى مدارس الأحد أن المدرسة حاولت أن تجعلنا نشعر بالأسى لصلب المسيح ، وظلت هذه المرأة تردد «أولستم حزانى على يسوع المسيح ؟ أولستم حزانى عليه ؟» ، فاجهش معظم الأطفال بالبكاء ، ولكن الشئ الذى يحيا ماثلا فى ذاكرتى هو أننى قلت لنفسى حينذاك : «إننى فى الحقيقة لا أهتم بهذا الأمر البتة» ولم يزايلنى بعد ذلك شعور بأنى لا أهتم مطلقا بقصة صلب

المسيح بأى شكل من الأشكال ، ولكن أعجوبة الصلب غارت فى أعماقى.

وكان هذا الإحساس بأعجوبة الصلب سببا فى شغفه بالترانيم الدينية، ويعترف لنا لورانس أن أعظم ما أنتجته قرائح أبرز الشعراء مثل قصيدة ورذورت «انشودة الخلود» ، وأناشيد كيتس ، وغنائيات جوته وفيرلين ، وبعض أجزاء من شكسبير لم تستطع أن تغور فى أعماقه مثلما استطاعت الترانيم الدينية العادية التى تلقنها فى طفولته أن تغور فى نفسه ، ويبدو أثر هذه الترانيم المنتشرة بين عمال المناجم واضحا فى قصته «الأفعى ذات الريش» (١٩٢٦)

وفى طفولته كانت والدته لورانس تحرم دخول الحيوانات الأليفة فى البيت، فقد كانت تعتقد ان تربية هذه الحيوانات تتنافى مع النظافة والذوق السليم، وكان هذا التحريم سببا فى مضايقة الابناء وفى مقدمتهم لورانس، وألح الاطفال على أمهم ان تسمح لهم باقتناء بعض هذه الحيوانات يؤيدهم ابوهم فى ذلك، الامر الذى اضطرها فى نهاية الامر الى الرضوخ لرغباتهم ويصور لورانس فى قصتين له بعنوان «أدولف» و «ركس» اولهما ارنب وثانيهما كلب اراد الاطفال تربيتهما . ويعكس ادب لورانس شغفه بالحيوانات كما تدلنا على ذلك تلك الطائفة الكبيرة من القصائد والقصص التى كتبها عن الحيتان والفيلة والخفافيش وغيرها من الحيوانات . ومما ينم عن مقدار حسه المرهف وشفقته بالحيوان ما ترويه أخته «إيدا» من انه أصيب بالغثيان فى المدرسة عندما اضطر الى تشرح ضفدعة.

كان جورج ، اكبر أبناء عائلة لورانس ، اكثرهم وسامة فى حين كان وليم - ارنست - قرة عين العائلة وموضع فخرها - نابها فى دراسته بمدرسة بوثال الداخلية ، ولكن ظروف عائلته القاسية اضطرته الى البحث عن عمل وهو غلام لا يتجاوز عمره الثانية عشرة فاشتغل كاتباً فى مكتب تابع لإحدى شركات المناجم ، ثم التحق بخدمة جمعية تعاونية محلية ، ولكن وليم استطاع بفضل مثابرته وجلده ان يواصل دراسته فى المساء ويتعلم الاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة الى جانب اللغتين الفرنسية والالمانية . وعندما بلغ الحادية والعشرين شد رحاله الى لندن حيث التحق بخدمة إحدى الشركات .

واصبح على د. هـ . لورانس الصغير ان يتنافس مع اخيه وليم حتى يصل إلى ما وصل اليه من تعليم ، والتحق بنفس المدرسة التى سبق ان التحق بها اخوه وليم ، وأمضى بها خمسة اعوام لم يكن سعيدا فى معظمها .

ولولا حرصه على إرضاء أمه التى كانت تشير بفخر واعتزاز الى منجزات اخيه الدراسية وتحثه على الاقتداء بها لأعرض لورانس عن الدرس والتحصيل وفى هذا الصدد يذكر لنا جورج فى عام ١٩٥٠ أن دراسة أخيه لورانس على كره منه ، كانت تسبب له صداعا وانه لولا حرصه على مشاعر أمه وخوفه من إغضابها لما تردد فى ان ينبذ هذه الدراسة نبذا تاما . وفى مقال كتبه لورانس فى عام ١٩٢٩ بعنوان «عبيد المدنية» نراه يحسد أباه الجاهل لأنه استطاع ان يفلت من قبضة المدارس والمعلمين ، ويصف لورانس جيل والده بأنه جيل ظل يحتفظ

بوحشيته ، فلم تستطع المعلمة ان تعلمه كتابة اسمه إلا بشق
الأنفس ، وكان يهرب من جو المدرسة الخانق لينطلق في احضان
الطبيعة ، ويستمتع بجمال الريف . ويأسى لورانس لأن جيله قد غدا
اسير السلطة التعليمية ، ولم تكن هذه الكراهية المشبوبة للمدارس
والقائمين بأمر التعليم قاصرة عليه وحده فقد شاركه فيها كل زملائه
من ابناء عمال المناجم الذين ينظرون الى المدرسة نظرتهم الى سجن
يقوم المدرسون بحراسته . وكان اول يوم ذهب فيه الى المدرسة يوما
تعا فقد انخرط عندئذ في البكاء ، وسرعان ما اصبح تشبته وعناده
سببا في اصطدامه بإدارتها . كان اسم دافيد كريها على نفسه يود ان
يتبرأ منه ، وكلما ناداه مدرسه و. و. وايتهد بهذا الاسم امتنع عن
الرد عليه ، الامر الذي احق المدرس وأثار ثائرتة وجعله يعنفه
قائلا : «إن دافيد اسم رجل عظيم صالح، مشيرا بذلك الى النبي داود
في الكتاب المقدس ، وكان وايتهد يعامل تلاميذه ابناء عمال المناجم
بفضاظة وغلظة تتناسبان مع فظاظتهم وغلظتهم ينهرهم تارة
ويضربهم تارة حتى يستطيع في نهاية الأمر ترويضهم ولم يكن هناك
مفر من أن يقبل تلاميذه اسلوبه الخشن في التربية والتعليم ، فقد كان
يحظى بتأييد أولياء الأمور وثقتهم ، وكان لهذا المعلم الغليظ اللفظ
على اية حال فضل في حصول لورانس فيما بعد على منحة دراسية
مكنته من الالتحاق بمدرسة نوتنجهام العالية ليواصل بعدها دراسته
بجامعة - كلية نوتنجهام . وفي يفاعته كان لورانس بين زملائه
الطلبة الاجلاف يعانى من ضعف بنيته ومن عجزه - بعكس اخويه
جورج ووليم - عن الدفاع عن نفسه ضد اعتدائهم عليه وتحرشهم

به . وبسبب ضعفه وهزاله كان لورانس يعزف عن الاشتراك فى الألعاب الرياضية، ولاحظ زملاؤه هذا الضعف فتعمدوا مضايقته والإساءة اليه ، وكانت نتيجة ذلك بطبيعة الحال انه احجم عن صحبتهم واتجه الى صحبة الفتيات .

ويقول وليم هوبكن انه مر ذات يوم على المدرسة وقت انصراف التلاميذ منها فشاهده يسير وسط فتاتين وبقية التلاميذ من خلفه يعبرونه ويتغنون ببیت من الشعر مما يتغنى به التلاميذ عادة بهدف معاكسة اقرانهم ومشاكستهم مفادة ان برت (وهو الاسم المختصر لهيربرت) مخنث تروقه صحبة الفتيات .

وجاهد الغلام حتى لا يظهر عليه الاكتراث بسخريتهم منه ، ولكن عينيه كانتا تتقدان بالغضب والعذاب ، ولأنه كان من الناحية البدنية اضعف من ان يذود عن نفسه غائلة تهكمهم فقد استطاع بمضى الوقت ان يدافع عن نفسه بسلاح حاد هو لسانه اللاذع ، ويذكر احد زملائه من الطلبة فى تلك الآونة أن لورانس عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره كان يلجأ فى اخراسهم الى تعليقاته المرة القاسية، ولعل اكبر اذلال واجهه فى صباه هو سخرية صرافى شركة المناجم منه ، فقد كان من عادة والده ان يرسله لتسلم اجره الاسبوعى نيابة عنه فكان الصبى الهزيل يضع فى زحمة العمال الكبار الذين يتجمعون لتسلم اجورهم ، وكان يحلو للصرافين ان يزيّدوا من محنته بالتهكم عليه وعلى والده السكير على مرأى من جميع الحاضرين وسمعهم ، ويصوّر لورانس فى روايته «ابناء وعشاق» مقدار ما كان يتعرض له من مذلة ومهانة عندما يتوجه الى مكتب

صرف اجور العمال بدلا من والده، فيتهكم عليه الصراف بقوله:
«هل بلغ السكر بأبيك مبلغا يحول بينه وبين الحضور كي يتسلم أجره
بنفسه؟».

لقد كان اخواه الاكبر سنا يتعرضان لنفس التهم ولكنهما كانا
يملكان من الجرأة ما يجعلهما يردان على سخريّة الصراف
بسخرية مماثلة، ولكن انى للصبي ان يفعل مثلها فحياؤه الجم يعقد
لسانه.

وعندما بلغ لورانس الثانية عشرة من عمره حصل على منحة
دراسية مكنته من الالتحاق بمدرسة نوتنجهام العالية، وتدل سجلات
هذه المدرسة العتيقة ان الطالب دافيد هيرت لورانس التحق بها في
١٤ سبتمبر ١٨٩٨، ولكن مكافأة المنحة - وهي خمسة عشر جنيها في
العام - لم تكف لتغطية نفقات الدراسة والسفر المستمر ذهابا
وايابا بالقطار بين قريته ايستود ونوتنجهام ، وأوشكت ضالة المنحة أن
تحول بينه وبين مواصلة التعليم لولا إصرار الأم وتصميمها على ان
توفر لابنها كل ما تستطيع حتى يستكمل تعليمه فيهرب من المصير
القاتم الذي كان حتما سينتظره لو ان تعليمه توقف عند ذلك
الحد، وهو العمل كأبيه تحت باطن الارض في مناجم الفحم،
واقضى ذلك العزم منها بذل تضحيات هائلة ، فضغطت مصروفات
البيت على الرغم من ضالة دخلها.

ولعبت المنحة التي حصل عليها لورانس لمواصلة دراسته في
مدرسة نوتنجهام العالية دورا حاسما في حياته، فقد فتحت امامه
آفاقا كان من الجائز ان تظل موصدة في وجهه الى الأبد، ولكن هذه

المنحة كانت كذلك سببا في تدهور صحته . فقد انهكه السفر المستمر ، وكان يخرج من بيته في زهير الشتاء في السابعة صباحا ليعود اليه في المساء في نفس الميعاد، ومن جراء ذلك بدأ يسعل سعالا حادا ظل يلزمه طوال حياته، وفي مدرسة نوتجهايم العالية بدأ لورانس ينسى سوء معاملة مدرسة وايتهد واستخدامه العصا كأسلوب لا محيص عنه في التربية والتعليم، وداخله الرضا والارتياح لأسلوب القس جيمس جو معلمه الجديد المتسامح الموهوب الذي يفيض حيوية ونشاطا، وبالرغم من الاعتقاد الشائع الذي يردده ت . س . إلويت، وغيره بأن لورانس لم يكن متعلما فإنه يبدو ان التعليم الذي تلقاه في مدرسة نوتجهايم العالية كان ممتازا وراقيا، زاده عمقا وامتيازاً انتظامه في الدراسة في بعض المعاهد العليا بعد تخرجه في هذه المدرسة. ويرى ف . ر. ليفزان التعليم الذي حصل عليه لورانس في هذه المدرسة . افضل من اى تعليم كان من الممكن ان يحصل عليه في اى معهد آخر، وتتخلص ميزة هذا التعليم في قدرته على تطوير عبقريته وإنضاجها الى اقصى حد ممكن . ومن المفارقات التي تدعونا الى الابتسام ان نعلم ان سجلات مدرسة نوتجهايم العالية تشير الى تفوقه في الرياضيات في حين انها تسجل تخلفه في مادة الإنشاء في اللغة الإنجليزية.

وفي تلك الفترة من حياته كان لورانس على صلة وثيقة بامرأة تدعى مس رايت كانت تعاونه في فهم ما يستغل على فهمه من الدروس . وفي القصة التي كتبها بعنوان «الفتاة الضائعة» في عام ١٩٢٠ نراه يشيد بفضل هذه المرأة عليه، ويقدم لنا لورانس في هذه

القصة صديقته مس رايت فى صورة مربية تدعى مس فروست تعمل فى خدمة «الفتاة الضائعة» . ويدعوننا هذا الى أن نذكر أن لورانس يستمد مادته الروائية من واقع الحياة كما ان شخصياته الروائية حقيقية، وليست من نسج الخيال. ولكنه لا ينقل تجارب هذه الشخصيات من الواقع بحذافيره فهو يخلط تجارب واقعية لعدد من الاشخاص ثم ينسبها الى شخصية واحدة من شخصياته الروائية.

وقد خريف عام ١٩٠٢ التحق لورانس بالتدريس فى المدرسة البريطانية فى ايستوود على اساس ان يقوم بالتدريس فى الصفوف الاولى وان يستكمل دراسته فى نفس الوقت على يد ناظر المدرسة . واستمر عمله فى مهنة التدريس حتى صيف عام ١٩٠٦ ، وضمن لورانس كثيرا من تجاربه خلال هذه الفترة فى شخصية اورسولا التى رسمها فى روايته «قوس قزح» (١٩١٥) ، ولم يكن لورانس موفقا فى عمله كمدرس فقد اقتضت منه مهنته الشاقة ان يجمع تلاميذ بضعة فصول فى حجرة دراسية واسعة يصعب فيها السيطرة عليهم وعلى مشاغباتهم وتناحرهم الذى لا ينتهى ، الامر الذى حدا به الى ان يصف تدريس ابناء عمال المناجم بأنه عمل متوحش . وينحى هوبكن - الذى كان يعرفه معرفة وثيقة فى تلك الفترة - باللائمة على لورانس لأنه بدأ حياته كمدرس فى مسقط رأسه ايستوود وذلك لأن معرفة أولياء الأمور به وبعائلته وأصلها الاجتماعى لم تساعده على اكتساب احترامهم . وعندما اشتغل بالتدريس لم يكن

راتبه السنوى يزيد على خمسة جنيهات ارتفعت الى ثلاثة اضعافها فى خلال الثلاث سنوات التالية.

وتأثر لورانس بقانون التعليم الصادر فى عام ١٩٠٢ الذى نص على تدريب المعلمين فى مراكز محددة للتأهيل التربوى ، وطبقا لهذا القانون تعين على المدرسين الذين يعملون فى منطقة ايستوود - ومن بينهم لورانس وصديقه جيسى تشامبرز - ان يلتحقا فى خريف ١٩٠٣ بمركز تدريب المعلمين فى ايلكستون . وتتضارب الاقوال بصدد حياة لورانس فى تلك الفترة (من ١٩٠٣ إلى ١٩٠٥) ففى حين تذكر جيسى تشامبرز انه كان سعيدا فى ايلكستون نجد ان صديقه جورج نيفيل يخالفها فى الرأى.

وهناك بعض الشواهد الاخرى التى لا تؤيد جيسى تشامبرز فيما تذهب اليه منها رواية «قوس قزح» التى ضمنها لورانس كثيرا من تجاربه فى خلال هذه الفترة . ويجدر بنا فى هذا الصدد ان نذكر أنه استمد شخصية إورسولد من فتاة حقيقية اسمها لوى باروز تعرف بها فى ايلكستون وأنه يعكس كثيرا من تجاربه وتجارب لوى باروز فى شخصية اورسولا . ولعل شخصية توماس بيكرافت ناظر المدرسة فى ايلكستون الذى يظهر فى رواية «قوس قزح» تحت اسم مستر هاربي . كانت ابغض شىء الى قلبه . ويرسم لنا لورانس فى هذه الرواية صورة كاريكاتورية لطفيانه وخطيرته ، وبالرغم من ان جيسى تشامبرز تقول ان علاقة لورانس بهذا الناظر كانت ودية للغاية فإن الشواهد فى رواية «قوس قزح» وفى غيرها تنفى ذلك ، وفى هذه الشواهد ان جورج نيفيل يؤكد لنا ان ذلك

الناظر كان مكروها من جميع المدرسين ، وان علاقة لورانس به لم تكن على مايرام .

لم يكن اهتمام لورانس بلوى باروز قاصرا على تصويره اياها فى شخصية اورسولا فى «قوس قزح» بل انه عبر عن اهتمامه بها فى شعره، كانت لوى تصغره بعامين ونصف ، وكان والدها الفريد باروز يهوى الحفر على الخشب.

ودفعته هذه الهواية الى انشاء جمعية للحفر على الخشب ، ويصور لنا لورانس فى «قوس قزح» هذا الرجل على انه شاب حالم مثل الشاعر راسكين تنصرف هوايته الى الحفر القوطى على الخشب.

وفى مركز تدريب المعلمين فى ايلكستون استطاع د. هـ . لورانس- بفضل رعاية ناظر المدرسة مستر توماس بيكرافت الذى تتلمذ على يديه - ان يفوز فى ديسمبر عام ١٩٠٤ بالمرتبة الاولى بين جميع المتقدمين فى كل من انجلترا وويلز لامتحان منحة دراسية تعرف باسم منحة الملك الدراسية. وكان تفوقه فى اجتياز هذا الامتحان سببا فى لفت النظر الى كفاءته العلمية، وفى عام ١٩٠٥ تقدم الى امتحان لندن الذى عقد فى نوتنجهام للحصول على شهادة الثانوية العامة.

ولكن التوفيق لم يحالفه فى هذا الامتحان مثلما حالفه فى الامتحان الاول فكان ترتيبه فى هذه المرة فى الصفوف الثانية. وبفضل ما اجتازه من امتحانات اصبح للورانس الحق فى الحصول على منحة دراسية مكنته من مواصلة الدراسة فى جامعة - كلية

نوتجهم ، ولكنه لم يستطع الالتحاق بهذه الجامعة فور حصوله على المنحة ، نظرا لأنه لم يكن يمتلك الرسوم المقررة . وهي عشرون جنيها- كان يتعين عليه ان يدفعها مقدما ، وهنا تدخلت الأم وظهرت اصرارا على ان يواصل ابنها دراسته العليا مهما كانت الظروف ، ودفعته إلى الاشتغال بالتدريس لمدة عام (١٩٠٥ - ١٩٠٦) استطاع خلالها ان يوفر كل ما يمكن توفيره فضلا عن انها شددت الحزام على بطنها وبطنون افراد العائلة ، وفي هذا العام بالذات توفر لورانس على كتابة أولى رواياته ، الطاووس الأبيض، (١٩١١) .

وفي حين كان يبذل كل جهده لتوفير كل ما يستطيع من مال لمواصلة دراسته ، كانت العائلة تجتاز ضائقة مالية شديدة ، وكانت تكأة (مخدة) حجرة الجلوس تحتاج الى تنجيد ، ولكن ظروف العائلة القاسية حالت دون ذلك ، الامر الذي اضطر لورانس الى اصلاحها مع صديق العائلة جورج نيفيل . ويذكر نيفيل عن تلك الفترة انه رأى والدته لورانس ذات يوم تنخرط في البكاء لأن زوجها عاد من عمله وهو يحمل ١٤ شلنا وخمسة بنسات ونصفا فقط هي كل ما تقاضاه عن اسبوع من العمل المضنى الشاق لأن المنجم كان يواجه حينذاك ظروفًا سيئة . وبالرغم من ذلك فقد ظهر د. هـ. لورانس في حلة جديدة من قماش الفانيلة ، ولما وقعت انظار ابيه عليها فغرفاه دهشة وسأله إذا كان قد دفع ثمن الحلة التي يلبسها ام انه اشتراها على الحساب ، الامر الذي جعل مؤلفنا يخرج من البيت مغاضبا ويفلق الباب وراءه في عنف ، وان دلت هذه الحادثة على شيء فإنها تدل

على مقدار ما بذلته الام من تضحيات من اجل ابنائها رغم ما كانت فيه من ضنك.

وفى سبتمبر عام ١٩٠٦ اى فى نفس الشهر الذى بلغ فيه لورانس الحادية والعشرين من عمره التحق بجامعة - كلية نوتنجهام التى كان فيها نوعان من الدراسة ينتهى احدها بالحصول على درجة علمية فى الآداب او العلوم البحتة من جامعة لندن، اما الدراسة الأخرى فكانت تربوية ومدتها سنتان، وهى دراسة حرة لا تنتهى بالحصول على أية درجة علمية، وبالرغم من ان نية لورانس الأصلية كانت تتجه فى بادئ الأمر الى الدراسة من اجل الحصول على درجة علمية فإنه تخلص عنها عن طيب خاطر وارتضى لنفسه متابعة المنهج الأسهل الذى لا يقتضى من الطالب الحصول على درجة علمية لأن ذلك يوفر له فسحة من الوقت استطاع ان يكتب فيها اولى رواياته «الطاووس الابيض» ويجدر بنا فى هذا الصدد ان نذكر اننا نلتقى على صفحات هذه الرواية بشخصية حارس الصيد أفابيل الذى يتكرر ظهوره فيما بعد تحت اسم «ميلورز» فى آخر رواية قبض لـ د. د. هـ. لورانس ان يكتبها وهى «عشيق اللىدى تشاترلى» (١٩٢٨) التى درسناها بالتفصيل فى موضع آخر * . قلنا انه من المفارقات ان نعلم ان سجلات مدرسة نوتنجهام العالية تشير الى تخلف د. د. هـ. لورانس فى مادة انشاء اللغة الانجليزية، وقد تكررت هذه الظاهرة ايام الطلب فى الجامعة ، اذ كان اساتذته يعترضون بشدة على ما يكتبه من موضوعات انشائية . وبالرغم من انه كان ينصرف فى تلك الفترة

* انظر كتابى «الأدب والجنس» ، دار أخبار اليوم ١٩٩١ .

إلى كتابة «الطاووس الأبيض» التي وجد يسرا في نشرها (فقد نشرها له أول ناشر عرضت هذه الرواية عليه) فإن اساتذته في الجامعة كانوا ينتقدون كتابته الإنشائية نقدا شديدا ، فضلا عن ان مجلة الجامعة رفضت ان تنشر له قصيدة نشرها فيما بعد في مجموعة قصائده، وكان ذلك بطبيعة الحال يسبب له ضيقا عظيما، الامر الذي خيب امله في هيئة التدريس وافضى الى انعدام ثقته بها، ويمكننا الرجوع الى روايته «قوس قزح» اذا اردنا ان نتبين حقيقة موقفه منها، ومن المفارقات الغريبة ان كبريات المجلات الادبية كانت اكثر تقديرا لقصائده من مجلة الطلبة الجامعية، فقد اقبلت هذه المجلات على نشر شعره وسرعان ما تبين الشاعر الكبير ازرا باوند مافيه من حداثة.

اتجه د. هـ. لورانس في بداية حياته الفنية - وهو لا يعدو التاسعة عشرة من عمره - الى قرض الشعر، وكان يحلم في يفاعته بتكريس حياته لكتابة الشعر، ولكن اصله الاجتماعي المتواضع جعله يشعر بالخجل من ان يراوده مثل هذا الحلم، فقد اسر لجيسى تشامبرز في يوم من الايام بأن الناس سيهزأون بابن عامل المناجم يتخذ من قرض الشعر مهنة له ، وحاولت جيسى ان تشد من ازره وتهون عليه فأكدت له ان عمل ابيه لا يشين شعره في قليل او كثير، وفكر لورانس في ان يكتب نشرا ، واتفق مع جيسى على ان يكتب كل منهما رواية ثم يعقدان المقارنات بين روايتيهما .

واقترح عليها اتباع خطة عمل تتلخص في ان يبدأ كل منهما بزوجين (أى اربع شخصيات) ثم يطور العلاقة بينهما، وقال لورانس

فى دفاعه عن هذا المنهج ان معظم روايات جورج البوت تنتهجه ،
وانه لا يبغي انشاء حبكة روائية لأن الحبكة الروائية تبعث فيه
الملل، وفى عام ١٩٠٦ سلم لورانس ما كتبه لجيسى - وهو مخطوط
رواية «ابناء وعشاق» حتى تبدى رأيها فيه.

كان وليم اخو لورانس الاكبر متعلقا بأمه اشد التعلق. وعندما
كانت الفتيات فى ايستوود يترددن عليه فى بيته كانت الام تعمل كل
ما فى وسعها للتخلص منهن، ويعتقد د. هـ. لورانس ان اخاه وليم
اصابه الانهيار الذى افضى الى موته عندما حاول ان يفلت من
قبضة امه عليه بالنزوح الى لندن والاشتغال فيها، وفى لندن بدأ وليم
يتخلص من سيطرة امه عليه ووقع فى غرام فتاة تافهة اسمها
جيسى دينيس تعمل بالاختزال ، وعندما جاء بها وليم الى ايستوود
لتزور عائلته وتتعرف عليها عاملتها امه بأدب ولكن كان من
الواضح ان تفاهتها لا تروقها وساء الام ان يحب ابنها فتاة تافهة
تعيش من اجل الاستمتاع بالحفلات والرقص ولا تعنى بشيء غير
اناقة ملابسها، ويلتقى القارئ بهذه الفتاة الضحلة التافهة على
صفحات رواية «ابناء وعشاق» تحت اسم لويزا ليلى دينيس
ويسترن.

وحيث اراد لورانس الالتحاق بعمل فى مصنع فى مدينة نوتنجهام
لانتاج الاطراف الصناعية للمشوهين وذوى العاهات طلب الى اخيه
وليم الذى استطاع ان يشق طريقه بنجاح فى لندن ان يساعده بما
لديه من خبرة فى هذا الشأن، وكتب له وليم طلبا للاستخدام مكنه
من التقدم لشغل وظيفة شاغرة فى هذا المصنع واصاب الغلام لورانس

الفرع عند مرأى الاطراف الصناعية لأول مرة فى حياته ، فلم يكن يخطر على باله قط ان تكون هناك أرجل صناعية خشبية ، فضلا عن ان تكون هذه الارجل سلعة تشتري وتباع ، وتسجل لنا رواية لورانس «ابناء وعشاق» قصة اشتغاله بهذا المصنع ، كما انها تصور شعور الفرع الذى اصابه عند رؤية الاطراف الصناعية لأول مرة فى حياته ، ولم يعمل لورانس فى هذا المصنع مدة طويلة بعكس ما جاء فى «ابناء وعشاق» ولكنه استطاع فى خلال المدة القصيرة التى اشتغل فيها (وهى لا تزيد على ثلاثة أشهر) ان يستوعب كل تفاصيل العمل فيه وان يستخدم هذه التفاصيل فيما بعد فى اعماله الروائية ، وتقاضى الغلام من عمله بالمصنع اجرا اسبوعيا قدره ثلاثة عشر شلنا فى الاسبوع ، واقتضى العمل منه السفر يوميا من ايستود الى نوتنجهام باستثناء يوم الراحة الاسبوعى ، وبلغت ساعات عمله اثنتى عشرة ساعة يوميا . وعلى الرغم من ان لورانس - كما قلنا - امضى فترة قصيرة لا تزيد على بضعة أشهر ، ككاتب فى مصنع الاطراف الصناعية ، فإنه اهتم اهتماما بالغا بتسجيل تفاصيلها فى روايته «ابناء وعشاق» فى حين انه اغفل تسجيل الفترات الطويلة التى قضاها فى نوتنجهام فى طلب العلم - وهى ثلاث سنوات فى مدرسة نوتنجهام العالية ، وسنتان فى جامعة - كلية نوتنجهام - وكان عمله فى مصنع الاطراف الصناعية يتطلب منه قراءة خطابات العملاء الواردة الى المصنع باللغتين الفرنسية والالمانية وترجمتها الى اللغة الانجليزية وتسجيلها فى دفتر خاص ثم الرد عليها ، وهى كلها خطابات يطلب فيها اصحابها ان يمدد المصنع بما يحتاجون اليه من مختلف الاطراف

الصناعية ، وتصور لنا رواية «ابناء وعشاق» علاقته الطيبة الودية بالفتيات العاملات بالمصنع وترسم لنا صورة رقيقة مهذبة لهؤلاء الفتيات ولكن جورج نيفيل الذى كان يعرف لورانس معرفة وثيقة فى تلك الفترة من حياته يؤكد لنا ان هذه الصورة الرقيقة تجافى الواقع تماما.

وفى عام ١٩٥٠ كتب مدير مصنع الاطراف الصناعية يقول: انه يذكر الغلام لورانس جيدا فى الفترة القصيرة التى اشتغل فيها بالمصنع - ويصفه بأنه كان شابا هادئا ومتحفظا للغاية طويل القامة عزوفا عن الكلام فى اوقات العمل وخارجها . ويضيف هذا المدير انه لم تسنح له فرصة يتبادل فيها الحديث معه، خصوصا لانه كان يسارع بمغادرة المصنع للحاق بالقطار الذى يقله الى قريته ايستوود. ويذكر جورج نيفيل ان العاملات الرقيقات اللاتى صورهن لورانس فى روايته ، كن فى واقع الامر فتيات وقحات خشنات من نوع كمساريات الترام اللاتى صورهن فى قصته «تذاكر من فضلك» . وفى هذه القصة نرى عددا من هؤلاء الكمساريات يدفعهن الغيظ من مفتش تذاكر الى الاحاطة به وطرحه ارضا ونزع ملابسه عنه، ويقول جورج نيفيل ان لورانس مر بتجربة مماثلة مع عاملات المصنع فقد التفقن حوله فى يوم من الايام وانقضضن عليه يعيدا عن الانظار فى احد مخازن المصنع ، وحاولن - وهو يقاوم فى استماتة - أن يكشفن عن الذكر المستور فيه . ويضيف نيفيل ان هذه الحادثة تركت فى نفسه شعورا عميقا بالاشمئزاز من النساء كما تركته لاهث الانفاس، وفى رأيه انها - فضلا عما عانى فيها من انهاك - كانت سببا فى اصابته بالتهاب رئوى حاد فى شتاء ١٩٠١ - ١٩٠٢ ..

وكانت فجيعة عائلة لورانس فى وفاة وليم فى لندن عنيفة فقد كان يفيض حيوية وشبابا وفى الثالثة والعشرين من عمره . وجاءت وفاته نتيجة اصابته بالتهاب رئوى . وحين سافر والداه إلى لندن وجداه فى غيبوبة حالت بينه وبين التعرف عليهما . وتولت الأم بما تتسم به من نظرة عملية إلى الأمور إنهاء كل اجراءات الوفاة المعقدة ونقل الجثة إلى ايستود . ويبدو أن وجود زوجها بجوارها كان عديم الفائدة . فقد شكت مسز لورانس إلى جيسى تشامبرز فيما بعد أنه لم يتم بتقديم أدنى مساعدة لها فى تلك المحنة . وبعد أن عاشت عائلة لورانس فى منزلها القديم فى ايستود مدة اثنتى عشرة سنة انتقلت إلى بيت آخر مجاور لأنها لم تعد تطيق العيش فى مسكنها القديم بعد وفاة ابنها وليم .

ومرت مسز لورانس بمحنة أخرى عندما أصيب ابنها د. ه . لورانس - كما أسلفنا - بالتهاب رئوى كاد أن يودى بحياته لولا أن تولت الأم رعايته والسهرة عليه حتى استطاع فى نهاية الأمر أن يسترد صحته . وكان انتزاع الأم لابنها من براثن الموت ضرورة لاستمرارها فى الحياة ، فقد أصبح ولدها الخيط الوحيد الذى يربطها بها . وبعد وفاة أخيه الأكبر وليم ارنست عاشت هذه الأم تسع سنوات من أجل ولدها دافيد ، تماما مثلما عاش دافيد من أجلها .

كان لورانس يظن أن الالتهاب الرئوى الذى أصابه فى يفاعته مسئول عن اصابته فيما بعد بمرض السل الذى فتك به . ولكن الطبيب الاخصائى فى الأمراض الصدرية الذى كان يعالجه فى

أخريات عمره يرى غير هذا الرأي . فقد كتب هذا الطبيب خطابا فى ١٢ سبتمبر ١٩٥٢ يقول فيه : إنه من العسير تحديد الوقت الذى بدأ فيه السل يتسلل إلى جسده وأنه شخصا لا يعتقد وجود أية علاقة بينه وبين الالتهاب الرئوى الذى هاجمه فى يفاعته . ويضيف هذا الاختصاصى أنه من المحتمل أن يكون مرض السل بدأ يتسلل إليه قبل أول نزيف أصيب به فى منتصف عام ١٩٢٠ . وعندما داهم الالتهاب الرئوى لورانس فى شبابه كان يجلس فى الشتاء - حين يصفو الجو بعض الشيء - على مقعد فى حديقة منزله ، وقد تدثر بالبطاطين معرضا جسده لأشعة الشمس . وأحزن مرضه أصدقاءه من أسرة تشامبرز التى كان يتبادل الرسائل معها عن طريق مستر تشامبرز رب العائلة الذى كان يحضر من مزرعته إلى قرية إيستوود كل يوم لتوزيع اللبن فيها . وفى أحد الأيام أخذ مستر تشامبرز الغلام المريض معه فى عربة نقل اللبن إلى المزرعة حيث استقبله مع زوجته بحفاوة بالغة وترحاب خالص كما لو كان ابنا لها . وعندما رآه أولاد عائلة تشامبرز رقى قلبهم له وزال جفاؤهم نحوه . وحين بدأ لورانس يسترد صحته أرسلته والدته لقضاء شهر للنقاهة فى بيت أختها الواقع على ساحل لينكولن شير ذى المناظر البديعة الخلابة . وانتشى الغلام بمناظر هذا الساحل الجميل . وبعد عودته إلى قريته استمر فى زيارة مزرعة عائلة تشامبرز . ولم يكن لورانس حينذاك يحمل نحو جيسى تشامبرز أية عاطفة ، فقد انحصر جل اهتمامه بوالديها وأخويها الكبيرين آلان و هيوبرت . ولكنه بدأ يشعر بوجودها مثلما بدأت تشعر بوجوده . وأثار حديثها المثقف فيها رغبتها فى مواصلة التعليم ، الأمر

الذى اضطر والدتها فى نهاية الأمر إلى السماح لها بالعودة للمدرسة لتعلم وتتعلم فى الوقت نفسه . وأصبح لورانس يشارك عائلة تشامبرز الأعباء المنزلية اليومية . وهو يجد فى ذلك متعة خالصة ، فينظف المدفأة لربة البيت ويقشر لها البطاطس . كما كان يشترك مع رب البيت وأولاده فى جمع الحصاد عندما يحين وقته . وأصبح لورانس أثيرا إلى قلب الأبوين .

وقال عنه رب البيت : «إن العمل يصبح متعة فى وجود برت .»
كما قالت عنه ربة البيت : «إننى أحب أن أكون بجوار برت عندما أذهب إلى السماء» .. وبعد انقضاء عدة أعوام كتب لورانس فى عام ١٩٢٨ يقول إن قلبه لا يزال متعلقا - كما كان فى صباه - بكل شيء يتصل بعائلة تشامبرز ومزرعتهم . وليس أدل على عمق الأثر الذى تركته فيه عائلة تشامبرز من أنه اتخذ من مزرعتها مكانا يقع فيه كثير من أحداث روايته «أبناء وعشاق» .

وتذكر أيدا لورانس فى مذكراتها أن جيسى تشامبرز استطاعت أن تجذب أخاها إليها بفضل جديتها وشدة اهتمامها بالكتب بخلاف غيرها من فتيات قرية إيستوود اللاتى ينصرفن إلى البحث عن عشاق ومحبين وتستأثر الملابس الجديدة بكل اهتمامهن . وكانت جيسى تنفر من خشونة إخوتها الذكور الأجلاف . الأمر الذى دعاها إلى الترحيب بصداقة لورانس والاستماع إلى حديثه وشاركته اهتماماته الثقافية . وبذلك لعبت هذه الفتاة دورا مهما فى مساعدة لورانس على تطوير أفكاره فى شئون الأدب والحياة . وحين دعاها لورانس إلى زيارته فى منزله رفضت دعوته فى بادئ الأمر . فاتهمها بالرغبة فى تحاشي

والده السكير والخوف من مقابله . وبالرغم من مقتها للخمر ومدمنيها فقد أكدت له الفتاة أنه ليست هناك علاقة بين احجامها عن زيارة عائلته ورغبتها في تجنب والده . وأراد لورانس أن يدخل الطمأنينة إلى قلبها فأكد لها أن أباه لا يجيء إلى البيت إلا نادرا . وتحققت جيسى تشامبرز من صدق هذا القول عندما زارت عائلة لورانس فيما بعد . ولاحظت جيسى جو التوتر الذى يسود البيت وأفزعتها هذا التوتر الذى ردتته إلى حزن الأم على وفاة ابنها ولیم إرنست ، وكراميتها لزوجها وحبها العارم لولدها دافيد . وعندما توثقت عرى الصداقة بين جيسى وعائلة لورانس بدأت والدة لورانس فى تنظيم الرحلات لها ولأولادها ، وكان د. هـ . لورانس يرأس الجماعة فى تلك المناسبات ويرشدها إلى الأماكن التى تستحق المشاهدة ويعلمها أسماء ما تصادفها فى طريقها من طيور وزهور . وكانت هذه الرحلات أحب الأوقات جميعها إلى نفس جيسى ، وخاصة تلك الأوقات التى يتمكن فيها لورانس من الانفراد بها بعيدا عن مراقبة الأم وسائر أعضاء الجماعة المتجولة .

وتذكر جيسى تشامبرز فى كتابها عن د. هـ . لورانس حادثة لها دلالتها تتلخص فى أنها رآته فى أثناء إحدى الرحلات التى كان يصحبها فيها مع بقية أفراد عائلته منكبا على شيء فى وسط الطريق وعلى وجهه علامات انزعاج وألم ممض واستغراق عميق فى التفكير . فلما اقتربت منه رآته ينحنى على مظلة يتفحصها فى لوحة وحسرة . وعندما سأله عما دهاه أجابها بقوله « إن مظلة أخى قد انكسرت وسترتاع والدتى إذا رجعت بها مكسورة إلى البيت » . وتدل هذه

الحادثة على أنه ابن أمه التي بسطت نفوذها الطاغى عليه . وتضيف جيسى قائلة إنه من المحتمل أن تكون هذه الحادثة بداية لميلاد عاطفة المودة والألفة التي نشأت بينهما . ومما يدلنا على أهمية هذه الحادثة أن لورانس أشار إليها في روايته «أبناء وعشاق» الأمر الذي يؤكد لنا - كما أسلفنا - أن لورانس يستمد مادته الروائية في واقع الحياة . واستغرقت كتابة «أبناء وعشاق» عامين . وصدرت هذه الرواية في عام ١٩١٣ بعد عام واحد من الانتهاء من تأليفها . وعندما فرغ لورانس من كتابتها في المرة الأولى عرضها على صديقه جيسى تشامبرز لإبداء الرأي فيها . فأنتح عليه باللائمة ووصفت روايته بأنها فاترة ومملة لا حياة فيها . وطلبت منه أن يعيد كتابتها فوافق على ذلك . ولكنه طلب من جيسى أن تدون ذكرياتها عن علاقته الأولى بها حتى يفيد منها في إعادة كتابة روايته . وأدمج لورانس بالفعل جانبا كبيرا من ذكريات جيسى النابضة بالحياة في روايته . وعندما عرض النسخة الثانية من «أبناء وعشاق» عليها لاحظت أنه اقترب فيها من الواقع أكثر من ذي قبل كما لاحظت أن ينايع الحياة قد بدأت تتفجر فيها . ولكن ألمها أنه أغفل الدور الذي لعبته ميريام (وهي الشخصية الروائية التي تمثلها) في تطور بطل الرواية من الناحية الفنية وأنه غدر بها ورسم صورة مشوهة لها بسبب سيطرة أمه عليه بشكل لم يستطيع الفكاك منه .

وهناك شبه كبير بين مذكرات جيسى التي نشرتها بعنوان «د. ه. لورانس سجل شخصي» بحروف أولى مستعارة ، وما ورد في رواية

«أبناء وعشاق» من حقائق . ولكن تفسير لورانس لهذه الحقائق يختلف عن تفسير جيسى لها . وما لا ريب فيه أن التزام لورانس بالواقع لم يمنعه من أن يلبس بعض مادته الروائية المستمدة من هذا الواقع لباسا من الخيال دون أن يحيد عن جوهر الحقيقة من ناحية وبطريقة ناقدة للذات تخلو من الشفقة على النفس من ناحية أخرى . وينبغي أن نذكر أيضا أن لورانس لم يكن يكتفى بفهمه الغريزي الصائب للطبيعة النسائية ، بل كان يطلب إلى النساء اللاتي يعرفهن أن يدون ما كن يشعرن به أو ما كان يمكن أن يشعرن به في بعض المواقف ، وتقول فريدا زوجة لورانس أنه في المراحل الأخيرة من كتابة روايته «أبناء وعشاق» كان يطلب إليها أن تصف ما عسى أن تحس به أمه في مواقف معينة . ولعل الصواب لا يجانبنا إذا قلنا إن اسهام جيسى في هذه الرواية يتلخص في تسجيل الحقائق وتقديمها إليه حتى يصوغها بخياله في قالب فني . ولكن لورانس لم يكن يقبل في جميع الحالات أن يأخذ بوجهة نظرها . فقد اعترضت هذه الفتاة مثلا على قوله في «أبناء وعشاق» أن بول (الذي يمثل لورانس) ، وميريام (التي تمثل جيسى) كانا يتحسسان طريقهما بين الفلاسفة وأنهما قرآ معا شوبنهاور وهربرت سبنسر ونيتشه . ويضيف لورانس أنه كان يجد في قراءة هؤلاء الفلاسفة متعة كبيرة في حين كانت آراؤهم تؤلم الفتاة ألما واضحا . وكان اعترضها على ذلك أنه لا يصور غرام المراهقين «بول» و«ميريام» من وجهة نظر المراهقة بل أنه يعالجه من وجهة نظر رجل ناضج في السادسة والعشرين من عمره . وتقول جيسى في هذا

الصدد إنه ليس من المعقول أن ينصرف غلام مثل بول في السابعة عشرة من عمره وفتاة مثل ميريام في السادسة عشرة إلى قراءة أعمال الفلاسفة . وبالرغم من أن لورانس لم يستجب لهذا الاعتراض الذى أثارتة جيسى فإنه أجرى فى روايته كثيرا من التعديلات بناء على مشورتها دون أن يضيق ذرعا بنقدها له . ومن العسير علينا أحيانا أن نتبين فى هذه الرواية الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال . فنحن نطالع أن ميريام أسلمت جسدها باردا لبول . ولكنه يصعب علينا أن نتأكد من صدق هذه الواقعة . ومهما كان الأمر ، فالذى لاشك فيه أن عاطفة جيسى تشامبرز نحو لورانس تحولت على حد قولها - إلى شيء أقرب ما يكون إلى العبادة الدينية .

ولكن حب د. ه . لورانس لجيسى لم يكن حبا خالصا . فقد انصرف الكثير من عواطفه نحو أخيها آلان . ويدعونا هذا إلى أن نشير إلى الكتاب الذى ألفه ميدلتون مري (الذى كان صديقا حميما له ثم انقلب عدوا لدودا له) تحت عنوان «ابن امه» وفيه يهتم مري بإبراز أوجه الشبه بين شخصيتي ادجار فى «أبناء وعشاق» ، والمزارع الشاب جورج ساكستون فى «الطاووس الأبيض» . ويناقش مري بوجه خاص منظرا فى فصل بعنوان «أنشودة صداقة» ، فى رواية «الطاووس الأبيض» وفيه نجد أن عددا من الشبان يستحمون معا فى بركة فى وقت الحصاد . ويذكر مري أن هذا المنظر يتكرر فى «أبناء وعشاق» حيث نرى بول وادجار - أخى ميريام - يعملان معا وقد ألف الحب بينهما فى جمع حصاد الحشائش الجافة . ويبنى مري على

عاطفة الحب التي تؤلف بين الشابين نظرية مفادها أن لورانس كان قبل وفاة والدته يتجه في حبه إلى الذكور من بنى جنسه . ولكن قد يدعونا إلى التشكك في سلامة هذه النظرية أمران : ان لورانس كان مغرما بجيسى تشامبرز وأنه كان على علاقة جنسية بامرأة متزوجة في قرية ايسستود . وليس هناك على أية حال سبيل إلى انكار أن بول في رواية «أبناء وعشاق» كان يتجنب ميريام في بادئ الأمر ويتعلق بأخيها ادجار أشد التعلق . كان هذان الغلمان يجتمعان معا في العصارى ويعملان معا في فلاحه الأرض عندما يكون الجو صافيا أو في نجارة الخشب في حجرة في أعلى البيت عندما يكون الجو مطيرا . فضلا عن أن بول كان يلقي ادجار كل ما يتعلمه من أخته أنى . وكانت ميريام تتألم حين ترى بول ينصرف عنها إلى رفقة أخيها ادجار . ويقودنا ذلك إلى أن نستعرض موقف د . ه . لوانس من الشذوذ الجنسي . فبالرغم من أنه يعترف أنه يمكن للرجل أن يجد متعته الجنسية في معاشرة رجل آخر فإنه يهاجم الشذوذ الجنسي في كتاباته وأقواله . فقد ذكر لهنرى سافيدج في عام ١٩١٤ أن متعة الرجل مع الرجل متعة جسدية فقط في حين أن متعة الرجل بالمرأة جسدية وروحية معا . ومما يدل على نفوره من الشذوذ الجنسي ما تروييه كاترين كارسويل في كتابها «الحاج المتوحش» فقد سمعته كاترين يقول إنه يعتبر الشذوذ الجنسي خطيئة في الروح القدس لا سبيل إلى غفرانها . ويشرح لنا لورانس موقفه بالتفصيل من مسألة الشذوذ الجنسي في خطاب بعث به إلى برتراند راسل في عام ١٩١٥ وفيه يقول

إنه يمقت اللواط ويأسف لأن الرجل الحديث لا يسعى إلى المرأة بدافع من الرغبة في اكتشافها واستكناه المجهول فيها حتى يدخل في علاقة خلقة معها ، بل إن هدفه ينحصر أن يستعيد معها احساسا مألوفاً من اللذة سبق له أن استمتع به . الأمر الذي يفضي إلى تفشى ممارسة اللواط في العالم الحديث ، وإلى سعى الرجل الحديث إلى ممارسة العادة السرية بطريقة ملتوية وغير مباشرة مستخدماً جسد المرأة كوسيلة يحقق بها غايته . وعندما ننظر إلى لورانس من الناحية النفسية فإننا نذكر على الفور ما يذهب إليه معظم النقاد من أنه كان مصاباً بعقدة أوديب بما يتضمنه ذلك من جنوح نحو الشذوذ الجنسي . ورغم أن مري تراجع بعد خمسة أعوام من كتابه «ابن أمه» عن إلصاق تهمة النزعات الجنسية الشاذة به ، فإننا نرى ناقداً آخر (هو ريتشارد ألد نجتون) يقول إن لورانس كان من الناحية الجنسية طبيعياً بنسبة ٨٥ ٪ وشاذاً بنسبة ١٥ ٪ ، ويتناول الناقد جيفري مايرز في كتابه «الشذوذ الجنسي والأدب في الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٩٣٠» (١٩٧٧) معالجة د. هـ . لورانس المثلية في أربع من رواياته : «الطاووس الأبيض» ، «نساء عاشقات» ، «عصا أدون» ، «الأفعى ذات الريش» .

لكن يجدر بنا أن نذكر أننا نجد بين النقاد من يعترض على القول بجنوح لورانس نحو المثلية . فقد كتب قسيس تحت اسم مستعار - هو وليم نفرتون - كتاباً بعنوان «د. هـ . لورانس والوجود الإنساني» (١٩٥١) ، يقول فيه إن النقاد بالغوا في تأكيد مرضه

بعقدة أوديب فقد استطاع بعد وفاة والدته وكتابة روايته «أبناء وعشاق» أن يتخلص من عقده بحيث أننا لا نرى فى كتاباته اللاحقة سوى أصداء خافتة لهذه العلة . وهناك تفسير نفسى آخر قد يوضح لنا السبب فى احتفال لورانس بالقوة والفتوة وعنايته البالغة بهما . ويتلخص هذا السبب فى أن هزاله وضعفه البدنى الذى ظل يلزمه، انتهى به إلى أن يتمنى أن يعيش فى عالم الرجولة والقوة والعافية .

وأخيرا يجب أن نعرض لاهتمامات د. هـ. لورانس الأدبية فى السنوات التى قضاها فى نوتنجهام قبل أن يغادرها إلى لندن . ولكن يجب أن نذكر فى هذا الصدد أنه اتجه إلى الرسم قبل أن يبدأ فى الكتابة . وفى العشرة أعوام الأخيرة من عمره زاد اهتمامه برسم الصور . وفى الأماكن المختلفة التى زارها فى إنجلترا وأمريكا الجنوبية وإيطاليا ترك لورانس عددا كبيرا من لوحاته فى ايدى الناس الذين عاش بينهم .

وبالرغم مما كانت عائلة لورانس تعانيه من فقر فقد كانت تمتلك مجموعة من الكتب الأدبية اشترتها وليم إرنست . وكانت عائلة جيسى كذلك تولى الأدب اهتمامها . وحسن كانت جيسى تشامبرز فتاة صغيرة وقبل أن تتعلم القراءة والكتابة كانت تستمع إلى والدها وهو يقرأ لأمها سلسلة ورواية توماس هاردى المعروفة «تسى سليل عائلة ديرفيل» التى كانت تنشر تباعا فى نوتنجهام شير جارديان . وعندما أصبح لورانس صديقا

لهذه العائلة بدأ ينظم معها حلقات خاصة لقراءة المسرحيات . واتخذ لورانس في هذه الحلقات موقف الأمر الناهى . ولكن مستر تشامبرز لم يغضب منه لأنه كان يحبه من ناحية ، ويعرفه معرفة وثيقة من ناحية أخرى . ولكن آراءه حينذاك في رجال الدين كانت تسبب القلق لمسز تشامبرز . ومما زاد من قلقها أن آراء لورانس في الدين ودعوته إلى المادية المتشككة بدأت تترك أثارا واضحة في ابنها آلان .

ولا شك أنه من المفيد أن نتتبع قراءات لورانس في شبابه مع صديقه جيسى تشامبرز . كانت قراءتهما المشتركة مصدر متعة لهما ليست لها حدود . قرأ لورانس وجيسى معا «سجين زندا» وروايات رايدر هاجارد الخيالية . ثم ارتفعت قراءتهما إلى مستوى ستيفنسون وكوبر ، وحركت أحداث رواية «لورنا دون» حياتهما إلى الحد الذى جعلهما يتصوران وقائعها حية ماثلة أمام أعينهما . ووجدا في ديكنز ضالتهما المنشودة ، الأمر الذى حدا بلورانس أن يذكر - وهو نصف جاد ونصف هازل - أن يرى نفسه ممثلا في شخصية ديكنز المعروفة دافيد كوبر فيلد . وامتدت قراءاته مع جيسى حتى شملت أعمال شكسبير والشعراء الانجليز الغنائيين وأظهر لورانس إعجابه بجورج إليوت وخاصة روايتها «طاحونة على نهر الفلوس» . واستفاد لورانس من علاقته بهوبكن - وهو اشتراكى راديكالى بدأ حياته بالعمل كاتبا في منجم من مناجم الفحم ثم اسكافيا ثم صاحب محل للأحذية . وملأ هوبكن أسماعه بسيل لا ينقطع من الفولكلور المحلى وحكايات عن عمال المناجم

والمزارع وتاريخ ايستوود . ومن الثابت أن لورانس استمد معظم أسماء شخصياته الروائية من أسماء جزارين ويانعى أصواف وخمور ومزارعين وترزية وقرويين كانوا يعيشون بالفعل فى منطقة ايستوود وكان. لورانس يعرفهم معرفة شخصية . وتذكر جيسى فى هذا الصدد أنه اشتغل لفترة وجيزة فى محل من محلات جزارة الخنازير حيث كان يقوم بتحرير الفواتير .

وفى أيام الطلب بالجامعة لم ينقطع لورانس عن مطالعة الكتب مع جيسى تشامبرز بدءا بقراءة كتب سهلة بسيطة باللغة الفرنسية ، ثم تدرجا إلى قراءة لوتى وبلزاك وفلوبيرت . وحضر لورانس تمثيلية ،غادة الكاميليا، التى كانت سارة برنارد تمثلها حينذاك ، وتركت مشاهدة هذه التمثيلية فى نفسه أثرا عميقا ، فقد اندفع خارج المسرح مضطربا فزعا ، وكتب إلى جيسى يقول لها إنه يخشى على نفسه أن تستعبده امرأة فى يوم من الأيام مثلما استعبدت غادة الكاميليا حبيبها أرمان . وفى تلك الفترة قرأ لورانس مع جيسى كذلك سيرة حياة مارك زدرفورد الذاتية . كما بدأت اهتماماته بالمطالعات الفلسفية ، فقرأ شوبنهاور وتأثر به تأثرا بالغا . وكان مغرما بمناقشة آراء هذا الفيلسوف المتشائم مع كل من جيسى وأخيها الآن وانعكس أثر شوبنهاور عليه فيما أنتجه من أدب روائى . ويبدو هذا الأثر واضحا فى أولى رواياته ،«الطاووس الأبيض» ، وفى رسمه لشخصية أنابل بالذات . وامتد أثر شوبنهاور إلى ما أنتجه لورانس بعد ذلك من أدب روائى . ومن الأعمال الفلسفية الأخرى التى قرأها مع جيسى فى شبابه ،«حياة المسيح» ، التى كتبها اللاهوتى

المعروف رينان . ولكن هذا الكتاب لم يرق له على الإطلاق ورغم أن لورانس تأثر بقراءة توماس هكسلى وهيكيل فإن أثرهما فيه لم يدم طويلا . فضلا عن أنه أقبل على قراءة هربرت سبنسر وجيمس ميل باهتمام شديد . وكان لكتايبى وليم جيمس «البراجماتية» و«تنوع التجارب الدينية» أثر كبير فيه . وتعرض إيمان لورانس بالدين للاهتزاز بسبب الضربات المتلاحقة التى توالى على أفكاره من جانب المذهب المادى من ناحية والمذهب العقلانى من ناحية أخرى . غير أن إيمانه بوجود الله لم يزايله قط . ورغم نظرتة التصوفية فإن مفهومه لله بدا أشد ما يكون غرابة . فالرأى عنده كما يشير لنا ألدوس هكسلى أن الجنس هو سبيل الانسان فى الاتصال بالذات الإلهية . فالجنس إذا مورس بطريقة تلقائية شىء مقدس . وحيث أن الله قوة كونية غامضة ومظلمة (بمعنى أنها تستغل على الفهم) وحيث أن الجنس أيضا طاقة غريزية غامضة ومظلمة فإن ممارسته بين الرجل والمرأة هو سبيل البشر للاتحاد بالذات الإلهية القدسية السامية ، ومن أبرز قراءات لورانس رواية تولستوى المعروفة «أناكارينا» التى استأثرت بالكثير من إعجابه فى شبابه وهو إعجاب زايله فيما بعد وتحول إلى احتقار جلى .

وفى العام الثانى من التحاق لورانس بالجامعة خطر له أن يتقدم بثلاث قصص للدخول فى مسابقة لكتابة القصة القصيرة نظمتها جريدة «نوتنجهام شير جارديان» التى خصصت مبلغ ثلاثة جنيهات لكل قصة فائزة ، ونظر لأنه لم يكن يسمح للشخص الواحد بأن يتقدم بأكثر من

قصه تعد بحفى لورانس وراء جيسى وقتناه اخرى ، وتقدم بقصه «مقدمه»
التي دفعتها جيسى باسم مستعار هو روزاليند . وقصة «الجورب الأبيض»
التي وقعتها صديقه له اخرى . أما لورانس نفسه فقد دخل المسابقة
بقصة «أسطورة» ، من بين هذه القصص الثلاث قيض لقصة «مقدمة»
التي قدمتها جيسى باسم مستعار- أن تفوز بالجائزة ، وفيما بعد ضمن
لورانس قصتيه الآخرين «أسطورة» و«الجورب الأبيض» في أول مجموعة
قصصية نشرت له في عام ١٩١٤ تحت عنوان «الضابط البروسي» .
وعندما أنهى لورانس دراسته في الجامعة حصل على التقديرات الآتية :
التدريس (جيد) ، القراءة (ممتاز) ، الرسم (جيد) الموسيقى (جيد) ،
وقرر المشرف عليه أنه ضعيف في ضبط الفصل ، ولا شك أن ما جاء
في التقرير المكتوب عن سيره الدراسي يلقي ضوءا على شخصيته . يقول
التقرير إن مستر لورانس واسع الاطلاع مهذب وأنه يمكن أن يصبح
مدرسا ممتازا إذا وضع في المكان المناسب . وأنه يفشل في مباشرة
التدريس في الفصول الكبيرة العدد في مدارس البنين الموجودة في
الأحياء الى تتسم بالفظاظة والخشونة ، ففظاظة الطلبة وخشونتهم كقيلة
بأن تفت في عضده وتصيب تصميمه وعزيمته بالوهن ، وتثير في نفسه
الاشملاز ، كما أنه لا ينجح في تدريس الفصول المتخلفة أو العادية ،
في حين أنه من المؤكد أن يصيب نجاحا في تدريس الفصول العليا
والممتازة وخاصة إذا توفرت لديه حرية التصرف . ويذكر التقرير كذلك
أنه إنسان يصعب ارضاؤه ، وأنه بالرغم من طلاقة لسانه فإنه يجد
أحيانا عسرا في العثور على أبسط الكلمات المناسبة للتعبير عما يريد .

إن صورة لورانس لن تتضح إلا إذا ذكرنا كثرة أسفاره فى بلاد العالم المختلفة . فبعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها نراه فى الفترة من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٥ ينتقل من إيطاليا إلى سيلان إلى أمريكا ليستقر فى نيومكسيكو وفى تلك الفترة من حياته نظم كاتبنا بعضاً من أروع قصائده ومقالاته ودراساته النقدية وكتب الرحلات إلى جانب بعض رواياته . وشاء القدر أن يصاب بمرض عضال أثناء إقامته فى نيومكسيكو فنصحته الأطباء بضرورة العودة إلى أوروبا وعاش مدة أخرى فى إيطاليا حيث نشر روايته المثيرة للجدل «عشيق الليدى تشاترلى» عام ١٩٢٨ ، وفى ٢ مارس ١٩٣٠ لفظ لورانس أنفاسه الأخيرة . والجدير بالذكر أنه كان يحلم فى نيومكسيكو بإقامة مستعمرة يمارس فيها أتباعه ومريدوه فلسفته الداعية إلى حياة البداوة والقطرة والتلقائية بعيداً عن بشاعة الحضارة الأوربية . كما أنه سعى إلى القبائل فى استراليا ليجد لديهم ما يفتقده فى هذه الحضارة .

كتب الدوس هكسلى مقالا بالغ الأهمية تناول فيه أدب لورانس وفكره . وهو مقال يتميز بالعمق والأصالة والبصيرة النافذة ، ومن ثم حرصى على تلخيصه لأنه يلقى ضوءاً غامراً على مؤلفنا الفكرى بوجه عام وموقفه من الجنس بوجه خاص .

يبدأ هكسلى مقاله بإبراز الجانب الذاتى فى إنتاجه الأدبى فيقول إن لورانس يذهب إلى أنه يكتب من أجل نفسه ، الأمر الذى يدل على

ذاتية دوافعه الخلاقية ، ويستطرد هكسلى فيقول إن الكتابة فى حالته قدر ومصير فضلا عن أنها تعينه على شفاء روحه مما تعانیه من أمراض . يقول لورانس فى هذا الشأن : «إن المرء يبدد مرضه عن طريق تأليف الكتب حيث يقدم عواطفه ويكررها حتى يتمكن من السيطرة عليها» .

كان شيطان الفن يملكه ويحدد خط سيره لدرجة أنه كان يبدأ الرواية دون أن يعلم كيف ينهيها أو حتى كيف يطور أحداثها . كان يترك الأمور تجرى على عواهنها وكانت أحداث الرواية تتطور من تلقاء نفسها وهو يقف أمامها موقف المستسلم ، وقد بلغ استسلامه لشيطان الخلق حدا جعله يقول إنه ليس على المؤلف قبل تأليف عمل خلاق غير أن يبتهل إلى الله ثم يترك الله يتم العمل الذى بدأه . يقول لورانس فى هذا الصدد : « إننى أشعر دائما كما لو كنت أقف عاريا حتى تحترمنى نار الله العلى القدير ... وإذا أراد المرء أن يكون فنانا فلا بد أن يكون متدينا .

ويعبر الدوس هكسلى عن سخطه على الكتاب الذى ألفه الناقد ميدلتون مرى عن لورانس بعنوان «ابن أمه» لأنه يعنى بتحليل سيرة حياة مؤلفنا فى ضوء آراء سيجموند فرويد فى علم النفس ويتجاهل فنه وعبقريته الخلاقية . ويثنى هكسلى على رأى الناقد الكبير ف . ر . ليفز فى د . ه . لورانس ، ويذهب إلى ما يذهب هذا الناقد من وجود تشابه عظيم بينه وبين الشاعر الرمزي الكبير وليم بليك . ويشرح ليفز هذا الشبه فيقول إن لورانس كان يملك نفس موهبة بليك فى

معرفة الموضوعات التى تثير اهتمامه ونفس قدرته على التمييز بين عواطفه الخاصة والعواطف التقليدية العامة ونفس الأمانة المروعة المخيفة .

ويسعى هكسلى إلى تحليل موهبة لورانس الأدبية بقوله إنه يتميز بحساسية مفرطة سبق للشاعر وليم وردزورث أن أسماها «مظاهر الوجود المجهولة» كان مؤلفنا دائب الاحساس بأن العالم سر مقدس يستغلق على الأفهام ، وأن هناك شيئاً خارج الانسان لا تسمية له غير «الوجود الآخر المظلم» وهو وجود غامض ومعتم وحاضر يتجاوز حدود العقل الواعى للانسان . ويفسر هكسلى موقف لورانس من الجنس فى هذا الضوء . فأهمية التجربة الجنسية فى نظره تتلخص فى الادراك المباشر وغير الذهنى وغير الواعى لهذا الحضور القدسى المتبلور فى بؤرة الظلمة . ومعنى هذا أن التجربة الجنسية جوهر الدين فهى همزة الوصل التى تربط بين ظلمة اللاوعى وظلمة الله التى يعجز الإنسان عن استكناها . ومعنى هذا أن العملية الجنسية عبارة عن طقس مقدس وممارسة صوفية تصل المرء بالذات الإلهية الغامضة والمجهولة . يقول لورانس فى هذا الشأن : «نحن نعرف الله الأب ، ذلك المجهول الذى لا سبيل إلى معرفته ، فى جسد امرأة فهى الباب الذى ندخل ونخرج منه . وفى المرأة تتم عودتنا إلى الأب بطريقة عمياء وغير واعية . أما إذا تسرب التفكير الواعى إلى التجربة الجنسية فهذا هو الشر الإنسانى المستطير . ولهذا السبب هاجم لورانس ممارسة الجنس على طريقة دون جوان وكازانوفا اللذين سعيا إلى التجربة الجنسية بدافع واع للحصول على المتعة

واللذة ، فى حين أن العملية الجنسية إذا أرادت أن تكون صحية فيجب أن تكون عمياء لا تفكر ولا تدبر أو تخطط . أى أنها يجب أن تكون استجابة تلقائية لنزاع تلقائى . ومن ثم فإن سعى المرء الواعى للحصول على اللذة الجنسية فى نظر مؤلفنا نوع من الكفر والتجديف . وهذا على وجه التحديد ما دعا إليه فى روايته المعروفة «عشيق الليدى تشاترلى» .

ويستطرد هكسلى قائلا إن لورانس كان بكل تأكيد يتمتع بموهبة لا توجد فى السواد الأعظم من البشر الذين يرضون بالعيش فى نفق الحياة المضىء فى حين أنهم يتجاهلون أن هذا النفق ما هو إلا بقعة صغيرة للغاية يحيط بها غلاف هائل من الأسرار والظلمة . وأدرك لورانس بموهبته الفذة وجود هذه الظلمة الخارجة عن الوعى البشرى وعن حدود الحياة اليومية المألوفة وسعى ما وسعه السعى إلى تصويرها فى أدبه . ولأن العقل والعلم يزيدان من مساحة البقعة المضيلة أو هذا النفق المضىء فإن لورانس ناصبهما العداة فرفض الإيمان بالعقل ونتائجه بما فى ذلك العلم وكشوفه ذاهبا إلى أن الجسد وليس العقل هو سبيل الإنسان لمعرفة الحقيقة . فالعقل يضل فى حين أن الجسد يهذى . ونحن نراه فى عام ١٩١٢ يقول : «إن الدين العظيم الذى أدين به هو الإيمان بأن الدم والجسد أشد حكمة من العقل . إن عقولنا يمكن أن تخطئ ولكن ما يشعر به الدم ويؤمن به ويقول لا يأتيه الباطل من خلف أو قدام ، وهو فى مقتته للعلم يشبه الشاعر وليم بليك الذى كان يصلى من أجل خلاصه من أفكار عالم الرياضيات الكبير اسحق نيوتن ؛ وأيضا يشبه

الشاعر كيتس الذى هاجم نيوتن لأنه قام بتحليل ألوان الطيف .
هاجم لورانس توسيع رقعة العلم والمعرفة ، أى زيادة رقعة النور ،
لأن هذا يقتضى تقليص منطقة الظلمة الهائلة المحيطة بالإنسان
والقضاء أو التقليل من إحساسه بالعجب والدهشة مما فيها من أسرار .
يقول هكسلى إن كراهية لورانس للعلم كانت مشبوبة ولا عقلانية فقد
حاول هكسلى ذات مرة أن يقنعه بسلامة نظرية التطور فكان رد
فعله عنيفا وغير عقلانى ، فقد صاح قائلا : «كذب» . وعندما أصر
هكسلى على تقديم البراهين العلمية الدالة على صحة هذه النظرية رفض
الاستماع وأشاح بوجهه قائلا : «إننى لا أهتم بهذه البراهين فهى
لا تعنى شيئا فى نظرى» ، ثم أضاف مشيرا إلى ضفيرته الشمسية (أى
مجموعة الأعصاب الموجودة بين العمود الفقرى والمعدة) وهو يحتج
بقوله : «إننى لا أشعر بها هنا» وبعد ذلك تجنب هكسلى أن يناقشه فى
أية موضوعات خلافية ومثيرة للجدل . ولهذا فضل لورانس الغرائز
العمياء التلقائية على العقل لأن العقل يعرف ، فى حين أن الغريزة
التلقائية تعيش .

وينبها هكسلى إلى كراهية لورانس للأعمال الفنية المجردة الكاملة
التكوين والآثار العظيمة الخالدة على مر الزمان ، ويفضل عليها الأعمال
التي تعيش لأجل ثم ينتهى الأمر بزوالها . ولهذا فضل البناء بالطوب
النيء على استخدام الحجارة . فالحجر يبنى الاهرامات التي لا تزول فى
حين أن الطوب النيء قصير العمر . ومن نفس هذا المنطلق نراه يفضل
الأغنية الشعبية البسيطة والخفيفة على السيمفونية الكبيرة والمعقدة . ان

الأهرامات والسيمفونيات وشوامخ الفن المجرد تتسم بالكمال والديمومة وهو شيء يتنافى فى رأيه مع طبائع الأشياء الفانية والموقوتة. ويذكر لنا هكسلى أن لورانس اعتاد ألا يصحح كتاباته ويعيد ترتيبها بل يقوم إذا كان غير راض عنها بإعادة كتابتها من جديد ، مثلما فعل فى روايته «عشيق الليدى تشاترلى» التى أعاد كتابتها ثلاث مرات . ويعزو هكسلى امتناعه عن تصحيح كتاباته إلى نفوره من فكرة الكمال المجرد .

ويضيف هكسلى أن موقف لورانس من الأخلاق لا يختلف عن موقفه من الفن . لقد أنحى بعض النقاد عليه باللائمة لافتقار رواياته إلى الشكل فكتب محتجا بأن هؤلاء النقاد يريدون أن يفرضوا على أدبه الروائى الشكل الذى يروق لهم وليس الشكل الذى يريد . ونفس الشيء ينطبق على موقفه من الأخلاق فهو يرى أن المرء مطالب بأن يستحدث لنفسه أخلاقا خاصة به ويعيش بمقتضاها ولا يعيش طبقا لما يريد المجتمع فرضه عليه من مواصفات وتقاليد أخلاقية .

آمن لورانس أن الحياة فن ، وأن فن الحياة أصعب من التأليف والكتابة ، واعتبر انصراف الإنسان الكامل إلى العمل وبذل الجهد المضنى فى أدائه نوعا من الفسق والفجور . فما أسهل أن يلجأ الإنسان إلى بذل الجهد المضنى هربا من الحياة . عندئذ يصبح الجهد الشاق فى رأيه ضربا من الترويح عن النفس وهكذا الحال مع الاستغراق فى التأملات المجردة مثل الاستغراق فى الروحانيات والتأملات السامية النبيلة حول

غاية الوجود وطبيعة الأشياء النهائية وهى الأمور التى أعلى الفيلسوف الفرنسى باسكال من شأنها ورأى فيها تأكيدا لعزة الإنسان وكرامته . وإذا كان باسكال قد رأى فى انشغال المرء عن التفكير فى هذه الأشياء النبيلة نوعا من الابتذال فإن لورانس على النقيض من ذلك رأى فى التفكير والأبدية ومثل هذه المسائل المجردة نوعا من الإسفاف . وفى ايجاز يمكن القول إن لورانس أصر على حياة الفرد التلقائية واستبعد المثل العليا والمبادئ الثابتة كما أنه أصر على أهمية الحدس مستبعدا التفكير الواعى وإعمال العقل .

إن كراهية لورانس للمعرفة المجردة والروحانية الخالصة وإيمانه بقدسية التجربة الجنسية التلقائية جعلته يؤمن بنوع من المادية التصوفية . ومن ثم فهو لا يعتبر كائنا ماديا مثل القمر مجرد كوكب بارد مكون من الصخور لا يختلف عن عالما الذى نعيش فيه ، ولكنه رآه من منظور روحى شفاف كشئ دينا مىكى مشع مثل الراديو والمفسفور . وذهب إلى أن المادة لا تقل فى حيويتها عن العقل المدرك لها . والرأى عنده أن النتائج الروحية الحية لابد وأن يكون لها أسباب مادية حية . كما أن مشاعر الإنسان العنيفة ورغباته القوية لابد وأن تكون قادرة على إحداث آثار قوية وعنيفة فى العالم الخارجى أو المادة الخارجة . والذى يستثير الروح بقوة وعنقوان لابد وأن يكون له نظير فى العالم الخارجى . ومعنى هذا أنه لم يكن ماديا فحسب بل كان ذاتيا أيضا . ومعنى هذا كذلك أنه آمن باحتمال وجود السحر بصورة أو بأخرى . وليس من شك أن إيمانه بالمادية التصوفية هو

الذى حدا به إلى إعادة صياغة المذهب المسيحى المؤمن بقيامة الجسد . وهذه المادية التصوفية تجعله يرفض فكرة بعث الروح بمعزل عن الجسد .

يقول هكسلى إن لورانس نذر كل كتاباته وجهوده الأدبية لاستجلاء ظلمتين : الظلمة المتركة داخل الجسد والمتمثلة فيما تتمثل فيه فى الغريزة الجنسية وظلمة العقل المتمثلة فى اللاوعى . وينتقد هكسلى أدبه الروائى بقوله إن لورانس بانتهاجه هذا النهج فرض قيودا لا داعى لها ومعطلة على طاقاته الخلاقة فقد أفضى هذا إلى استبعاد أنشطة الانسان العادية والمألوفة فى دائرة اهتمامه الأدبى كما أفضى إلى تجسيد نظريته فى أعماله الخلاقة مثلما فعل فى روايته : « قوس قزح » و « نساء عاشقات » . ويلقى أحد خطابه الضوء على نظريته فقد كتب فى ٥ يونيه عام ١٩١٤ إلى صديقه إدوارد جارنيت يقول : « على أية حال فإن الجانب الفيزيقي الذى يتجاوز حدود ما هو انساني يثير اهتمامى أكثر مما يثيره العنصر الانسانى التقليدى والبالى الذى يجعل المرء يرسم شخصياته فى إطار أخلاقى معين على نحو منسق ومنسجم مع نفسه . ولهذا السبب بالذات اعترض لورانس على الاطار الاخلاقى الذى رسمه كل من تورجنيف وتولستوى ودستيوفسكى فى أدبهم .

ويحدثنا هكسلى عن الشكوى المرة التى جأر بها لورانس بسبب احساسه بالوحشة والانعزال عن المجتمع . والغريب أنه كان يتمتع بالقدرة على اقامة علاقات حميمة مع الذين صادفهم فى حياته .

وتصور روايته «حيوان الكانجارو» الصراع بين نزعاته الاجتماعية المتأصلة في نفسه ونزعتيه بسبب شيطان الفن نحو العزلة والانفراد . وهو صراع انتهى بغلبة الفنان الراغب في العزلة على الانسان الراغب في إقامة صلات مع غيره من البشر . ويعزو هكسلى تجواله في بقاع العالم المختلفة في سيلان واستراليا والمكسيك الخ ... إلى احساسه المروع بالوحشة . وكان تجواله هروبا في النفس بقدر ما كان بحثا عن مجتمع بدائي تلقائي لا تشوبه عيوب ومثالب المجتمعات الأوربية بوجه عام والمجتمع الانجليزى بوجه خاص ... ذلك المجتمع الذى استقر في وجدانه . ولا غرو فقد كان يحبه ويمقته في آن واحد . لم يشأ لورانس في البقاء في انجلترا بسبب ادراكه أن انشغاله بمشاكلها سوف يدفعه بالضرورة إلى الانخراط في المنظمات السياسية والمشاركة في الحياة العامة . في حين أن شيطان الفن فيه دفعه إلى اختيار حياة الوحدة والوحشة التى انتصرت على رغبته في الانخراط في الحياة العامة . يقول لورانس في هذا الشأن : «من الجائز أن قدرى كتب على أن أجوب العالم وأعرفه . ولكن هذا يثيرنى من خارجى ويترك داخلى منعزلا وأكثر قدرة على تحمل المكاره عن ذى قبل ... إنه شكل من أشكال الهروب من النفس ومن المشاكل الكبرى ... كل هذه الأسفار إلى الأماكن المتوحشة في الغرب الأمريكى واستراليا العجيبة !

كان هكسلى مفتونا بشخصية لورانس ومسحورا بها منذ أن قابله لأول مرة في لندن عام ١٩١٥ أثناء تأهبه للسفر إلى فلوريدا لإنشاء مستعمرة

يجرب فيها مع نفر من مريديه حياة البداوة . وهو الأمر الذى باء بالفشل والإخفاق شأن جميع محاولاته لإقامة مجتمعات بدائية فى بقاع أخرى . أعجب هكسلى بشخصية لورانس واحترمها لأنه رأى أنها تختلف عن سائر الشخصيات التى عرفها فى حياته وشعر أن لورانس ينتمى إلى جنس أسمى من جميع معارفه ... أسمى فى الكيف وليس فى النوع . ويضيف هكسلى أن لورانس فى فتراته الأخيرة كان يتحدث كشخص ينازع الردى ويقترب من حافة الموت بسبب اعتلال صحته وإصابته بمرض السل . وكان يبدو وهو يتحدث كإنسان فى غفوة الموت وظلامه ليكشف عن أشياء جميلة وغامضة لا سبيل إلى سبر غورها . ثم أنه كان يتمتع بقدرة فذة على الشعور بمشاعر الحيوان والنبات والزمور . يقول هكسلى فى هذا الصدد :

«بدا أنه يعرف عن طريق تجربته الشخصية أنه يعرف ماذا تكون عليه الشجرة أو زهرة الديزى أو الموجة المتلاطمة أو حتى القمر الغامض نفسه . وكان بمقدوره أن يشعر بمشاعر الحيوان ويخبرك بالتفاصيل الشديدة الاقناع كيف يشعر هذا الحيوان بل كيف يفكر على نحو معتم والمخالف للمألوف فى عالم البشر .

وهذا ما تؤكدته شهادة رجل آخر هو فيرنون لى الذى قال عنه إنه يرى مالا يراه البشر بل يرى من الطبيعة والأشياء الخارقة لها ما يعجز غيره عن رؤيته . ومن ثم قدرته غير العادية على حب البشر وكراميتهم فى آن واحد . كان لورانس ينقل من يتحدث معه إلى عالم علوى يتجاوز حدود الوعى الانسانى . ومن ثم فإن الحديث معه كان تجربة مثيرة

للغاية . يقول هكسلى إن حديث لورانس لم يكن أبدا يبعث على الملل لأن لورانس نفسه لم يعرف الملل مطلقا . فقد كانت الأمور العادية تثير اهتمامه . كان لورانس يطبخ ويرتق الجوارب ويحكى القماش ويحلب البقرة ويتقن الحفر على الخشب والتطريز . وهى نشاطات لم ير أنها تافهة فقد كان يؤديها بحيوية دافقة وكأنه يأتى بجليل الأعمال . غير أن تغيرا أسيفا طرأ عليه عندما بات من المؤكد أن أيامه على الأرض معدودة فقد زالت روحه المعنوية العالية وضحكاته النابضة بالحياة وتحول بأسه إلى شحنة من الغضب والسخرية والوحشة من كل شيء .

رقم الايداع : ٤٩٩٧ / ١٩٩٧

I. S. B. N

977-07-0530-6

روايات الهلال تقدم

أوراق سكندرية

بقلم

جميل عطية إبراهيم

تصدر : ١٥ أغسطس ١٩٩٧

كتاب الهلال يقدم

البحث عن العقل

حوار مع
فكر الحاكمية والنقل

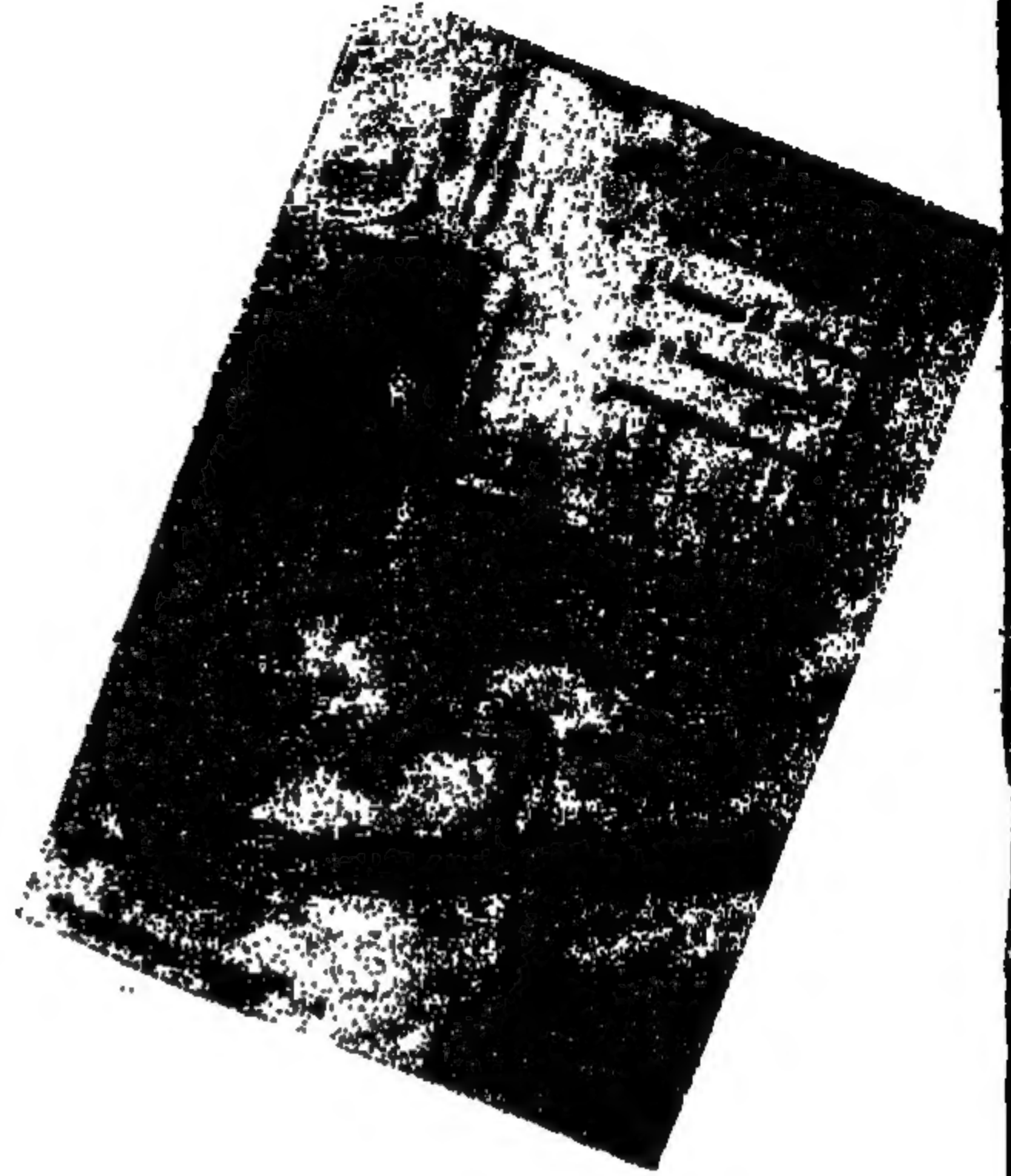
بقلم

د . محمد نور فرحات

يصدر : ٥ أغسطس ١٩٩٧

الهلال

محمّد زاهد الدين



احرص على اقتناء عددك

الجديد من مجلة الهلال

المجلة الثقافية الأولى

في العالم العربي

الثمان

١٥٠ قرشا

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

هذه الرواية

تجىء أهمية الفن في أنه يحتمل التأويل والتفسيرات العديدة :

وعظماء الأدباء قدموا أعمالهم التي فسرها ملايين القراء بالعديد من وجهات النظر التي تختلف تماما ، أو تقترب من مفاهيم الكاتب ، أو عما يقصده .

وهذه الرواية التي تنشر لأول مرة باللغة العربية للكاتب د . هـ . لورانس من بين الأعمال التي تحتمل التأويلات الكثيرة . لقد كتبها لورانس عام ١٩٣٠ في أواخر حياته ، وبدأت الرواية بمثابة حالة ابداعية خاصة تعكس كوابيس المرض التي كانت تتراكم فوقه .

وغرابة هذه القصة أنها هلوسة رجل عبقري اضناه المرض ، وأدناه من الموت ، فأصبح مستمسكا في يأس عظيم بتلابيب الحياة التي أوشكت على الانطفاء ..

سبق لروايات الهلال ان قدمت أبرز ابداع لورانس كاملا مثل «ابناء وعشاق» و «عشيق الليدي تشباترلي» واليوم نقدم «الرجل الذي مات» . وكأن لورانس كان يتنبأ برحيله .



د . هـ . لورانس
(١٨٨٥ - ١٩٣٠)

- واحد من أبرز أدباء النصف الأول من القرن العشرين ، تركت رواياته بصمات واضحة على فن الرواية.

- اسمه بالكامل دافيد هربوت لورانس ، مولود في اسرة فقيرة تعمل في المناجم وتعانى من فقر شديد ، وتربى تربية دينية متشددة .

- نشر روايته الأولى «الطاووس الأبيض» عام ١٩١١ ، ومن بين أعماله الأخرى الشهيرة «ابناء وعشاق» ١٩١٣ «قوس قزح» ١٩١٥ ، «نساء عاشقات» ١٩٢٠ ، «عشيق الليدي تشباترلي» ١٩٢٩ ، «العدراء والفجرى» ١٩٣٠ .

- تعدد عطاؤه الأدبى فى كتابة الرواية . والدراسة الأدبية ، وعرف بغزارة ابداعه ، ومن بين اعماله النثرية المنشورة فى كتاب الهلال : «فانتازيا الغريزة» ، و «الأدب المكشوف والبذاءة» المنشور باسم «الشذوذ والابداع» .

عائلة روايات الهلال

● اذا كنت من هواة قراءة الابداع
الراقي عربيا وعالميا ، فشارك معنا عائلتنا
الابداعية: «عائلة روايات الهلال».

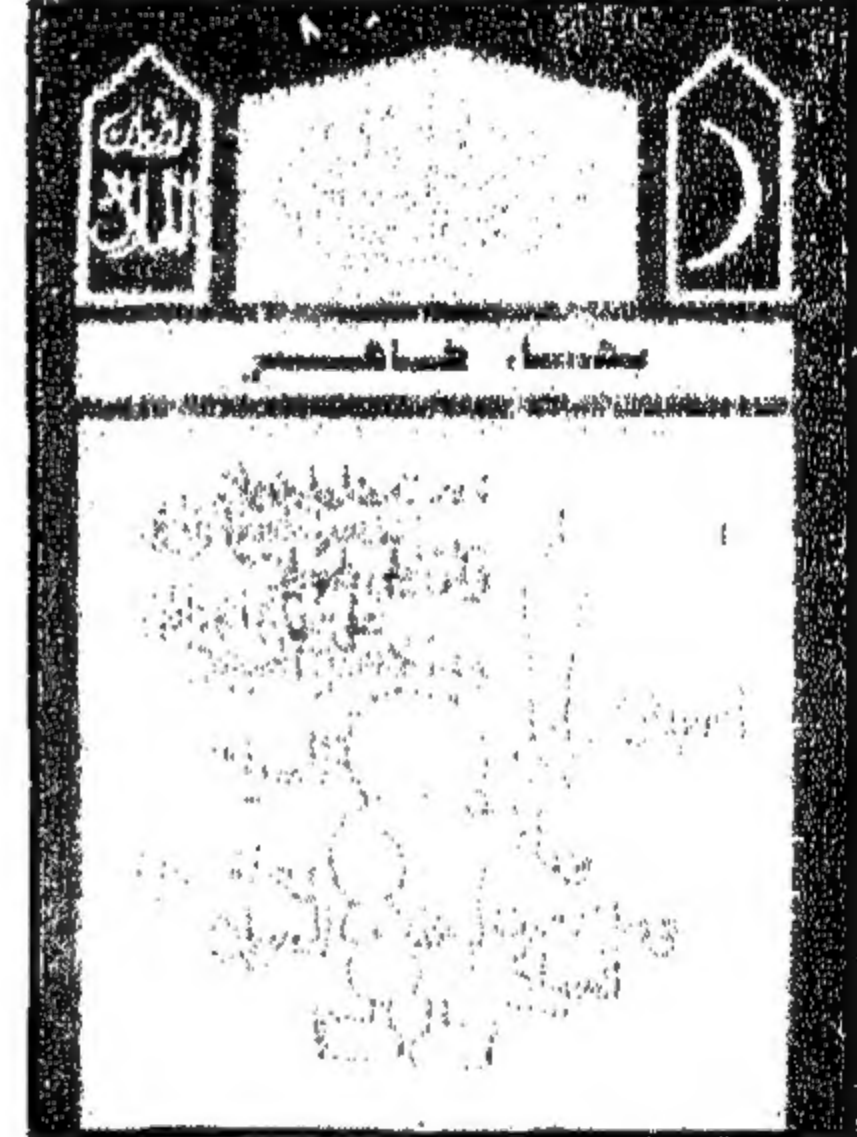
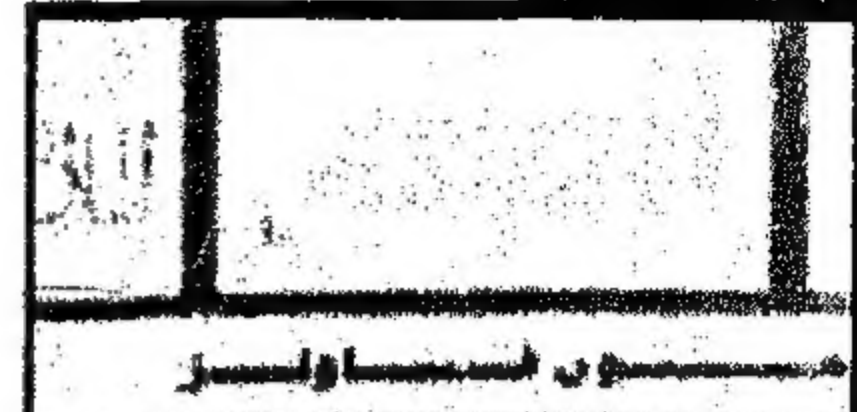
● احرص على اقتناء نسختك الشهرية ،
أو احرص على الاشتراك فيها تصلك بالبريد
المضمون الى عنوانك .

● ٤٧ عاما من الابداع المثالى .

● تم اختيار أعمالنا لتكون أفضل
الاصدارات للسنوات الأخيرة بصفة متتالية.

● تحصل رواياتنا على اهم الجوائز
الأدبية. وتتم ترجمتها إلى لغات العالم.

● مرة أخرى .. إذا كنت من قراء
الابداع الجيد .. فانضم الى «عائلة روايات
الهلال» .



الكتاب

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

من: أدب، وقصة، ودراسة، وسير، وبحوث، وفكر، ونقد، وشعر، وبلاغة، وعلوم، وتراث، ولغات، وقضايا، وتاريخ، واجتماع، وعلم نفس، ورحلات، وسياسة... إلخ.

صدر من هذه السلسلة:

- الإنسان الباهت .
- الحياة مرة أخرى .
- التنويم المغناطيسى .
- نوم العازب .
- من شرقات التاريخ ج ١ .
- أم كلثوم .
- المرأة العاملة .
- قادة الفكر الفلسفى .
- الملامح الخفية (جبران ومي) .
- عبد الحليم حافظ .
- انقراض رجل .
- الشخصية المتطورة .
- محمد عبد الوهاب .
- الشخصية السوية .
- الشخصية القيادية .
- الإنسان المتعدد .
- الشخصية المبدعة .
- فكر وفن وذكريات .
- ساعة الحظ .
- سيكولوجية الهدوء النفسى .
- الإعلام والمخدرات .
- من شرقات التاريخ ج ٢ .
- الشخصية المنتجة .
- الأسرة مشكلات وحلول .
- ظلال الحقيقة .
- شجرة معاوية، وملك بنى أمية .
- مذكرات خادم .
- طيبة أحمد الإبراهيم
- نوال مصطفى
- يوسف ميخائيل أسعد
- محمد حسن الألفى
- د. محمد رجب البيومى
- مجدى سلامة
- سوزان عبد الحميد أغا
- يوسف ميخائيل أسعد
- لوسى يعقوب
- مجدى سلامة
- طيبة أحمد الإبراهيم
- يوسف ميخائيل أسعد
- مجدى سلامة
- يوسف ميخائيل أسعد
- يوسف ميخائيل أسعد
- طيبة أحمد الإبراهيم
- يوسف ميخائيل أسعد
- لوسى يعقوب
- محمد حسن الألفى
- يوسف ميخائيل أسعد
- د. نوال محمد عمر
- د. محمد رجب البيومى
- يوسف ميخائيل أسعد
- مجدى سلامة
- طيبة أحمد الإبراهيم
- عرفات القصبي قرون
- طيبة أحمد الإبراهيم

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨، ١٠، ١٢ شارع ١٧ المنطقة الصناعية
بالمعاصرة - المكتبات ١٠، ١١ شارع ٤٤٤ مدق بالفجالة - شارع الإسحاق بن عيسى - روكس - ٢٥٨١١٩٧ ج م. ع / فساكس - ٢٥٨١١٩٧ / ٢٥٨١١٩٧
الجديدة - الفسيفساء ت: ٢٨٣٥٥٥٥ - ٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨١١٩٧ ج م. ع / فساكس - ٢٥٨١١٩٧ / ٢٥٨١١٩٧